ذكاءُ إياس

ذكاءٌ خارق.. وفراسةٌ عجيبة!

محمد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

ذكاءُ إياس

ذكاءٌ خارق.. وفراسةٌ عجيبة!

بسم الله الرحمن الرحيم

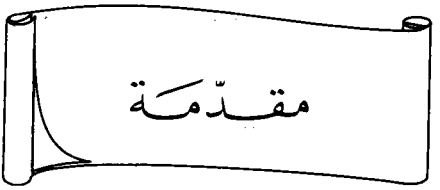

هذه سيرةٌ من أعجبِ السِّيَر!

سيرةُ أحدِ أذكياءِ الدنيا، وأعجوبةٍ من أعاجيب الدهر، وعَلَم من أعلامِ أمَّةِ محمدٍ ﷺ، ضُرِبَ المَثَلُ بذكائهِ وفراسته، وحسنِ قضائه، فطبَّقتْ شهرتهُ الآفاق، على الرغم من كونهِ محاطاً بأعلامٍ مشهورينَ في عصره، أمثالِ الإمامِ الحسن البصري، وابنِ سيرين، والأعمش. وكان في زمنِ الحجاج، ثم الخليفةِ الراشد عمر بن عبدالعزيز، رحمهم الله جميعاً.

إنه القاضي العادل، والعالمُ الجليل إياس بن معاوية المزني، الذي بلغَ من ذكائه أن يقول: إني أحدِّث الناسَ بنصفِ عقلي!

وإذا قيلَ له إنك معجبٌ بكلامك قال: أفيعجبكم ما أقول أم لا؟

فلا يملكون إلا قول الحقيقة، وليس أمامهم إلا الاعتراف بالواقع!

عند ذلك يجيبهم بقوله: فأنا أحقُّ أن أُعجبَ بكلامي!

وإذا قيل له: إنك مُكثرٌ من الكلامِ مهذار، يقول لهم: أفمصيبٌ أنا فيما أقولُ أم لا؟

فلا يجدون مهرباً من قول الحق!

فيقول لهم: فالإكثارُ من الصواب أفضل، وكلما كثرَ الحقُّ فهو خير!

على أنه يقرُّ لهم بالحق، ويجابههم بعيبهِ قبل أن ينقدوه، فيقول: ما من رجلٍ إلا وهو يعرفُ عيبَ نفسه، وأنا أعرفُ عيبَ نفسي، أنا رجلٌ مكثار!

كما ينقدهُ الجاحظُ في هذا الجانب، ولم تقنعْهُ أجوبته السابقة، ولعل الحقَّ معه... فإن «للكلامِ غاية، ولنشاطِ السامعين نهاية»!

قلت: ولو جاءَ التحليلُ مقروناً بحالةٍ ذكائيةٍ فائقة مثل حالةِ إياس، فإنه قد يُلتمسُ له العُذر!

فقد كانت قوتهُ العقلية كبيرةً فائضة، زائدةً عن قوةِ احتماله، فكان لا بدَّ من «إفراغ» هذه الشحنةِ الزائدة، التي وصلتْ عنده إلى حالةِ الإشباعِ أو أكثر!

ولعله لو لم يفعلْ ذلك لأصابتْهُ بلواء، أو مات!

ولا يخفىٰ ما نسمعهُ عن أطفالٍ أذكياءٍ جدّاً يماثلونَ في قدرتهم العقلية طلابَ الجامعاتِ أو أساتذتها، ولكن الكثيرَ منهم يموت؛ لعدم تحمُّلهم قوةَ ذكائهم الخارقة! فهم غيرُ عاديين، وغيرُ طبيعيين!

وقد يذكرُ القارىءُ ذلك الطفل الذي جابَهَ الشاعر المعرّي بما لم يحر معه جواباً، ونصحَ أهلَهُ أن يحتفظوا به، ثم لم يلبثْ أن قيل له: إنه مات! فقال: قتلَهُ ذكاؤه!

وكان القاضي إياس معظَّماً عند الخلفاءِ والأمراءِ والوجهاء، وفي مجتمعهِ كلِّه، على الرغمِ من كونهِ غيرَ جميلِ الصورة، وعلى الرغمِ من إصرارهِ على لبسِ الزيِّ الخشن!

ولما بلغَ به الذكاءُ حدّاً عالياً لا يكادُ يصدِّقهُ العقل، كان أهلاً لأنْ يُضربَ المثلُ به وبفراسته، وأن تتناقلهُ كتبُ الأمثالِ والأدبِ على أنه نادرةٌ من نوادرِ الزمان، لا يكادُ يجاريهِ أحدٌ في حدَّةِ ذكائهِ وعجيب فراسته.

وقد ذكر الإمامُ الذهبي في ترجمته في «تاريخ الإسلام» أنه كان له محبُّوه، وتلامذةٌ يكتبون عنه الفراسةَ قبل أن يتولَّى القضاء، كما يكتبونَ عن صاحبِ الحديثِ الحديثَ!

قلت: ومع ذلك لم يصلنا من أخبارِ ذكائهِ وفراسته إلا القليل، والأعاجيبُ التي ذُكرتْ عن أقضيتهِ لقوةِ فهمهِ وحسن استدلاله ليستْ بكثرةِ ما روي عن شريح القاضي مثلاً، على الرغمِ من أنه كان يُشَبَّهُ به. وذلك أن إيَاساً ـ رحمه الله ـ لم يبق في القضاءِ أكثرَ من سنةٍ واحدة، ثم فرَّ إلى الخليفةِ عمر بن عبدالعزيز خوفاً على نفسه من أن يُفْتَنَ بيد الظالمين.

ولو أن عالماً قضى سنةً من حياته في القضاء لما عُرِفَ به، ولما قيلَ له قاضٍ؛ نظراً لقِصَرِ المدة التي قضاها في هذه المهنةِ الصعبة، وذلك مثلُ الإمامِ الحسن البصري رحمه الله، الذي وليَ القضاء بعد عزلِ إياس، ولكن الإمام الحسن لم يُشتهرْ بكونه قاضياً، وقد لا يعرِفُ الكثير أنه قد تولَّى القضاءَ أصلاً!

أما إياس فإن أقضيتَهُ صارتْ مشهورةً جداً، وعُرِفَ بـ «القاضي إياس» على الرغمِ من أنه لم يُزاولْ هذه المهنة رسمياً أكثر من سنة واحدة!

وما جمعتهُ في هذا الكتابِ ليس تقصِّياً لأخباره. ولا تحقيقاً في أمره، ولا تحليلاً لشخصيته، إنما هو أخبارٌ وحوادثُ متلألئةٌ على جبينِ التاريخ لأحدِ الأعلام الذين تفتخرُ بهم أمةُ الإسلام، فيه إبرازٌ لمكانته، وبيانٌ بإيثاره الحقَّ، وما أُثِرَ عنه من ذكاءٍ وفراسة؛ ليكون قدوة، ومصدر فخرٍ واعتزاز، وملحظاً لأبناء جيلنا، يقارنون بينه وبين أقزامٍ آثروا تسخيرَ ما آتاهم الله من ذكاءٍ وفطنةٍ للعبثِ والتخريبِ وافتتانِ الناسِ وإضلالهم، لأجلِ منصبٍ أو مالٍ أو شهوة!

ولو أنهم استعملوا قواهم ومداركهم ومواهبهم العالية لخيرِ الناس، لا لمصالح شخصية، أو أهدافٍ ضيِّقة غريبة، لكان حال المسلمين غيرَ هذه الحال. ولسوف يُسألون.

اللهم إنا نسألكَ السدادَ في أمورنا، والإخلاصَ في غايتنا، وإصلاحَ أحوالنا. واجعل إيماننا بكَ رائداً إلى تقواك، وإصلاحاً بين عبادك. ونعوذُ بك من منكراتِ الأخلاقِ والأعمالِ والأهواء.

محمد خير يوسف

٢٦/٨/١٤٢٠هـ

الفصل الأول

طَرَفٌ
من سيرة إياس

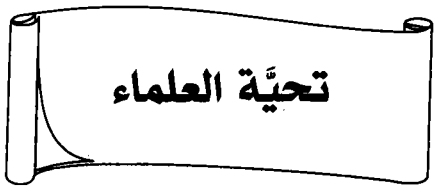

هو القاضي الفطن الثقة إياس بن معاوية بن قُرَّة بن إياس المزني، أبو واثلة. قاضي البصرة.

لجدِّه «قُرَّة» صحبة. ووالده من التابعين. روى عنه، وعن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ونافع مولى ابن عمر، وآخرين.

وروى عنه أجلَّةٌ من العلماء والمحدِّثين، كأيوب السختياني، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وحُميد الطويل، والأعمش، وعبدالله بن عون، ووالد الأصمعي.. وغيرهم كثير.

وهو تابعي ثقة، من عقلاء الرجال، ومن أذكياء العالم، أخباره مبثوثة في كتب العلم، لمؤرخين، ومحدِّثين، وقضاة، وأدباء.

واشتُهر بحدَّةِ ذكائه، وعجيب فراسته، وسؤدده، وأخلاقه القويمة، وحِكَمه العظيمة.

له أحاديث مسندة، وأحكام واجتهادات في القضاء مبرزة، وحكايات في الذكاء نادرة، وبعضها كالمستحيل، لعلها منسوبة إليه، ألصقها به أخباريون وقُصاص؛ لما ورد في فرط ذكائه،

حتى أوردوا قوله أنه يذكر الليلة التي ولد فيها!

وأثنى عليه علماء أجلاء:

فقال فيه كبيرُ نقّاد رجال الحديث يحيى بن معين: إياس بن معاوية ثقة.

وورد قول النسائي فيه أيضاً أنه ثقة، وفي مصدر آخر ورد قوله إنهم تكلموا فيه، رد الذهبي بقوله: وثقه ابن معين، وساق له مسلم في مقدمة صحيحه، وخرَّج له البخاري تعليقاً...

وقال أيضاً: ثقة نبيل، يضرب المثل بذكائه وعقله وفصاحته وأحكامه وفطنته.

وقال: أحد من يُضرب به المثل في الذكاء والرأي والسؤدد والعقل.

وقال قرينه ابن سيرين رحمه الله: إنه لَفَهِم، إنه لَفَهِم.

وقال أحمد بن عبدالله العجلي: إياس بن معاوية بصري ثقة، وكان على قضاء البصرة، وكان فقيهاً عفيفاً.

ووصفه أبو نعيم بقوله: «صاحب الحِكَم والأحكام الماضية».

وقال ابن خلّكان: هو اللَّسِنُ البليغ، والألمعي المُصيب، والمعدودُ مثلاً في الذكاء والفطنة، ورأساً لأهل الفصاحة والرجاحة. كان صادق الظنِّ، لطيفاً في الأمور، مشهوراً بفرط الذكاء، وبه يضرب المثل في الذكاء.

وقال الجاحظ: القاضي القائف[1]، صاحب الزَّكن[2]، والمعروف بجودة الفراسة.

وقال أيضاً: وجملة القول في إياس أنه كان من مفاخر مضر، ومن مقدَّمي القضاة، وكان فقيه البَدَن[3] دقيق المسلك في الفِطن، وكان صادقَ الحَدْس، نِقاباً[4]. وكان عجيب الفراسة ملهماً. وكان عفيف الطُّعْم[5]، كريمَ المَداخلِ والشِّيم، وجيهاً عند الخلفاء، مقدَّماً عند الأكفَاء، وفي مُزينة خير كثير.

واشتُهر بذكائه فقيل في المثل: أذكىٰ من إياس.

كما ضُربَ المثلُ بفراسته. وهو قائف أيضاً.

وقال أبو تمام مادحاً:

إقدامُ عمرو في سماحة حاتم في حِلْمِ أحنف في ذكاءِ إياس[6]

وكان أحمر، طويل الذراع، دميماً، يلبس اللباس الغليظة.

وكانت له جارية تقوم على طعامه وتذبح له.

---

(١) القائف: الذي يتتبع الآثار ويعرفها.

(٢) الزكن: التفرُّس والإصابة في الظن.

(٣) أي كأن بدنه مطبوع على الفقه لذكائه ولنفوذه فيما أشكل منه أو غمض.

(٤) الحدس: الظن والتخمين، والنقاب: الرجل العلاّمة الفَطِن.

(٥) أي كان لا يأكل إلا من حلال.

(٦) عمرو هو عمرو بن معد يكرب، وحاتم هو الطائي، وأحنف هو ابن قيس.

ولما كبر كان أبيض الرأس واللحية، لا يخضب[1].

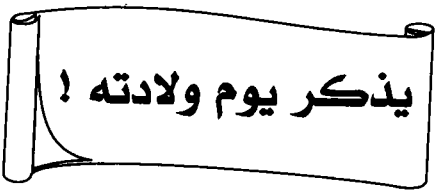

وورد في مصادر عديدة قول إياس أنه يذكر ليلة ولادته! وأن والدته يومَها وضعت على رأسه إجَّانة أو جَفْنة[2].

وأنه قال لوالدته: ما شيءٌ سمعته وأنا صغيرٌ وله جَلَبةٌ شديدة؟ فقالت: يا بنيَّ طَسْتٌ سقطت من فوق الدار إلى أسفل، ففزعتُ، فولدتُكَ تلك الساعة[3]!

---

(١) انظر الأخبار السابقة متفرقة في المصادر التالية:
الطبقات الكبرى (٢٣٤/٧)، تهذيب الكمال (٤٠٧/٣ ـ ٤١٠)، البداية والنهاية (١١٦/١٣، ١٢١ ـ ١٢٢)، حلية الأولياء (١٢٣/٣، ١٢٤)، تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات ١٢١ ـ ١٤٠هـ ص(٤١ ـ ٤٢)، وفيات الأعيان (٢٤٧/١ ـ ٢٤٨)، شذرات الذهب (٩٤/٢ ـ ٩٥)، المنتظم لابن الجوزي (٢٢٠/٧ ـ ٢٢١)، تاريخ مدينة دمشق (٥/١٠ ـ ١٣)، ميزان الاعتدال (٤٥٠/١)، البيان والتبيين (٩٨/١ ـ ١٠١)، أخبار القضاة (٣٤٣/١، ٣٤٤ ـ ٣٧٢)، العقد الفريد (٨/٣)، معجم الأمثال العربية (٣٦٧/١)، صبح الأعشى (٥١٨/١).

(٢) الإجَّانة: إناء تغسل فيه الثياب، والجَفْنة: القصعة.

(٣) تاريخ دمشق (١٣/١٠ ـ ١٤)، تهذيب الكمال (٤٠٩/٣)، البداية والنهاية (١١٨/١٣).

وقد أورد الخبرين بسنده الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، وورد بأسانيد وروايات أخرى.

منها ما أورده وكيع في أخبار القضاة[1] قوله: إني لأعلم يوم ولدت!

قيل له: وكيف علمت؟

قال: خرجتُ من ظُلمة، فلم ألبث إلا يسيراً حتى عدتُ إلى ظلمة! فذكرتُ ذلك لأمي فقالت: يا بني إني لمّا ولدتُكَ أردتُ أن أقوم لحاجة، فأكفأتُ عليكَ الجَفْنةَ مخافة أن يأكلك الذئب[2]!

قال: وكانوا في البرية.

قلت: وهذا كالمستحيل، فإن صحَّ فإنه شيء نادر جداً، بل من أعاجيب الدنيا، إن لم يكن من أعجب عجائبها. لكنه ليس مستحيلاً، فإن رجلاً ضُرب به المثل في الذكاء الحاد، والفطنة العجيبة، والزكانة النادرة، والفراسة القوية، في أمَّة الإسلام العظيمة، لا يُستبعدُ أن تكون له أحوال خاصة، سواء في حال ولادته، أو في غيرها.

على أني لا أصدِّقُ ذلك ولا أكذِّبه. وقد وضعت في كتابيَّ «عجائب الفِكر وذخائر العِبَر» و «أعجب العجب» من

---

(١) أخبار القضاة (٣٢٩/١).

(٢) أخبار القضاة (٣٢٩/١).

الغرائب والعجائب ما يهوِّن عليَّ تصديقه، وبخاصة ما قيل في الأطفال الأذكياء وأحوالهم النادرة في سنيهم الأولى مما يفارقون به حالات البشر العادية كثيراً.

ولو توثَّقتُ من صحةِ السندِ إلى صاحبه لصدقته، فإنه ثقةٌ كما مرَّ.

والله سبحانه أعلم.

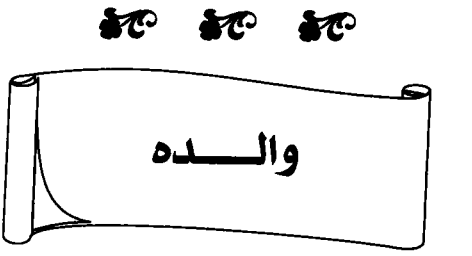

وكان بارّاً بوالديه، يحبُّهما، ويترضّاهما.

ووالده تابعي ثقة، روى له الجماعة.

وهو الذي يقول: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبيِّ ﷺ ليس فيهم إلا من طَعنَ أو طُعن، أو ضَربَ أو ضُرب مع رسول الله ﷺ.

وهو القائل أيضاً: أدركتُ سبعين من أصحاب النبيِّ ﷺ لو خرجوا فيكم اليوم ما عرفوا شيئاً مما أنتم فيه إلا الأذان!

ويقول في تواضع وخشوع: أن لا يكونَ فيَّ نفاقٌ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، كان عمر يخشاهُ وآمنهُ أنا[1]؟

---

(١) من ترجمته في تهذيب الكمال (٢٨/٢١٠).

وقد سئل هذا الأب الكريم: كيف ابنك إياسٌ لك؟

فقال: نعم الابن، كفاني أمر دنياي، وفرَّغني لآخرتي[1].

وكان يفتخر بابنه ويقول: علَّمتُ إياساً تسع سنين، ثم لم يزل يعلمني بعد[2]!

وقال أيضاً: إن الناس يلدون أبناءً، ووَلَدْتُ أباً[3]!

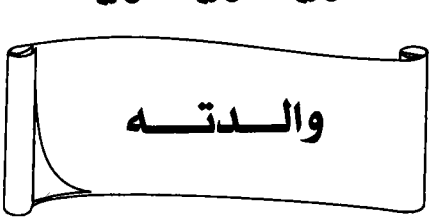

وكانت أمُّهُ جاريةً بنانية، من أهل خراسان. يحبُّها، ويحرص على إرضائها.

عن سُفْيان بن حُسين قال: أردت التعريف[4] بواسط يوم عَرفة، فقلت: أَمُرُّ بإياس بن معاوية؛ فأتيته، فخرج معي إلى المَسْجد، فلما دخَل المسجد قال لي: إن أُمي خَرجت وهي عليَّ غَضبى، وأنا أكره أن أصير إلى التَّعريف والدُّعاء وهي

---

(١) الطبقات الكبرى (٢٣٤/٧)، حلية الأولياء (١٢٤/٣)، تهذيب الكمال (٤٠٩/٣ ـ ٤١٠...) وغيرها من المصادر الواردة في فقرة: تحية العلماء.

(٢) أخبار القضاة (٣٢٦/١، ٣٦٠) (وفي الموضع الأخير: سبع سنين).

(٣) البداية والنهاية (١٢٦/١٣)، تاريخ دمشق (٣٥/١٠).

(٤) المراد بالتعريف: اجتماع الناس في مكانٍ للتشبُّه بالواقفين في عرفة.

غَضبي، فقم لي حتى أسْترضيها: فدنا من ظُلّة أنسنا، وخرَجت إليه أُمُّه، فجَلس بين يدَيها، واضعاً يَديه على خَدِّيه، مُنَكِّساً رأسه طَويلاً، ثم قام فقال لي: اذْهب بنا فقد رضيت[1].

وعندما توفيت والدته، عزَّاهُ بكر بن عبدالله المزني فقال: يا أبا واثلة، أما أحدُ بابَيْك فقد أُغلقَ عنك، فانظرْ كيف تكونُ في البابِ المفتوح. فبكى الناس.

وكان يبكي ويقول: كان لي بابان مفتوحان من الجنة، فأُغلقَ أحدُهما[2].

ويبدو أن والدته كانت تحلف كثيراً، فذكر إياس أنه كفَّر عنها ألفَ يمين[3]!

ويعترف أن القيافة التي أوتيها جاءته من قبل أمه، قال: كانت تخبرني أن إخوتها يزكنون[4] ويتفرَّسون. فلقيتُهم بمكة، فزكنتهم وزكنوني[5].

(١) أخبار القضاة (٣٤٤/١، ٣٦١).

(٢) تاريخ الإسلام ص(٤٤ ـ ٤٥)، البداية والنهاية (١٢٦/١٣)، أخبار القضاة (٣٤٤/١)، تهذيب الكمال (٤٣٦/٣ ـ ٤٣٧)، تاريخ دمشق (٣٣/١٠).

(٣) أخبار القضاة (٣٤٤/١).

(٤) أي يظنون فيصيبون في ظنِّهم.

(٥) أخبار القضاة (٣٦١/١).

إياس.. الطفل الذكي

وكان وهو صغير، ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكان له أخٌ أشدُّ حركَةً منْهُ وَأقوى، فكان معاويَةُ أبوه يقدِّمه على إياس، فقال له إياسٌ يَوْماً: يا أبتِ! إنَّك تُقَدِّمُ أخي عَلَيّ، وسأضربُ لك مثلي ومثلَه: هو مثل الفَرُّوج حين تنفلق عنه البَيضة، يخرج كاسياً كافياً نَفْسَهُ، يلتقط، ويستخفُّه النَاس، وكلّما كبر انتقص، حتى إذا تَمَّ فصار دجاجة لم يصلحْ إلاّ للذبح. وأنا مثلُ فَرخِ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقطٍ لا يقدرُ عَلَى حركة، فأبَواه يغذُوانِهِ حتّى يقوى ويثبتَ ريشُهُ، ثمَّ يحسُن بعد ذلك ويطير، فيَجِدُ به الناس[1] ويكرمونَهُ، ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء، فيُصان لذلك ويُكْرَمُ، ويُشْتَرى بِالأَثْمانِ الغالية.

فقال أبوه: لقد أحسنت المثل!!

فقدَّمه عَلَى أخيهِ، فوجَد عِنْدَهُ أكثرَ ممَّا كانَ يظنُّ فيه[2].

(١) أي يحبونه.

(٢) الحيوان للجاحظ (٢/٢٧٨ ـ ٢٧٩).

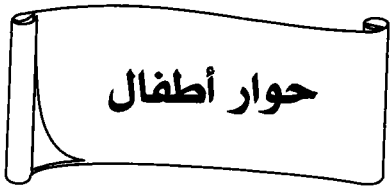

ومن ذكريات الطفولة التي رواها قوله:

كان لي أخ، فقال لي وهو غلامٌ صغير: من أيِّ شيءٍ خُلقنا؟

قلتُ: من طين.

فتناول مَدَرةً[1] وقال: من هذا؟

قلت: نعم، خلق الله آدم من طين.

قال: فيستطيع الذي خلقنا أن يعيدنا إلى هذا الذي خُلقنا منه؟

قلت: نعم.

قال: فينبغي لنا أن نخافه[2]!

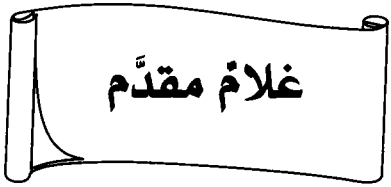

ولما دخل عبدالملك بن مروان البصرة، رأى إياساً وهو صبيٌّ وخلفه أربعة من القرّاء أصحاب العمائم، وإياسٌ يقدمهم، فقال عبدالملك: أما فيكم شيخٌ يقدمكم غيرُ هذا الحدث؟

---

(١) هي قطعة الطين اليابس.

(٢) نثر الدر (٣٣٥/٥).

ثم التفت إليه وقال: كم سنُّك؟

قال: سنِّي أطال الله بقاء الأمير سنُّ أسامة بن زيد حين ولاّهُ رسولُ الله ﷺ جيشاً فيه أبو بكر وعمر!

فقال: تقدَّم بارك الله فيك.

وكانت سنُّه سبعَ عشرة سنة[1].

وتأتي قصة أخرى له مع قاض وهو غلام، عند الحديث عن ذكائه، حيث يسكت القاضي ولم يحر جواباً!

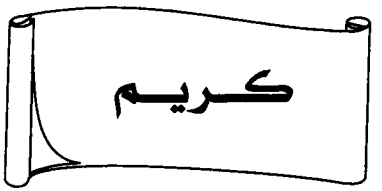

وتذكرُ له سجايا طيِّبة.

وقد كان كريماً ذا إحسان.

فقد ذكر صوَّافٌ كان في السوق أن إياساً باع أرضاً له بعشرة آلاف، قال: فكان يأخذ كل يوم مني أربعمائة يَقْسِمها في الأعراب في سنة شديدة[2].

وعابوه عند أبيه معاوية فقال لهم: ما أدري ما تقولون،

---

(١) حدائق الأزاهر ص(٦٣).

(٢) أخبار القضاة (٣٤٨/١).

أما هو فيتصدَّقُ بألفِ درهم أسهلَ عليه من شيءٍ يسيرٍ عليَّ[1].

وبلغ به الكرم أن يستقرض على عطائه (أي راتبه) ويتصدَّق، حتى يخرج عطاؤه[2]!

وكان تقيّاً في معاملاته... يستقرض القصبَ وزناً، ويردُّهُ وزناً[3].

متواضعاً.. فكان يجلس إلى رجلٍ من الصيارفة في السوق يتحدَّثُ إليه، فولي القضاء، فما ترك ذلك المجلس[4].

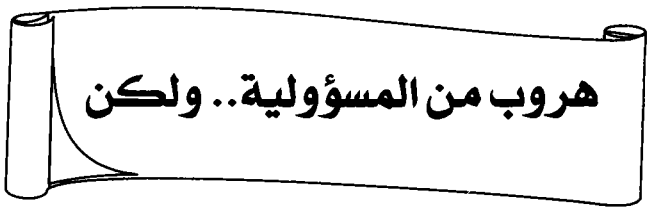

وحدَّث أبو عامر الخزَّاز قال: قال لي إياس بن معاوية المزني:

أرسلَ إليَّ عمرُ بن هبيرة[5] فأتيته، فساكتني فسكتُّ، فلما أطلتُ قال: إيهٍ. قلت: سَلْ عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (٣٥٤/١).

(٣) المصدر السابق (٣٢٧/١).

(٤) تاريخ دمشق (٣٠/١٠).

(٥) الداهية الشجاع، أمير العراق، ت١١٠هـ.

قلت: نعم. قال: هل تفرضُ الفرائض[1]؟ قلت: نعم. قال: فهل تعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم. قال: فهل تعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعلم. قال: إني أريد أن أستعين بك.

قلت: إن فيَّ ثلاثاً لا أصلح معهنَّ للعمل.

قال: ما هنَّ؟

قلت: أنا دميمٌ كما ترى، وأنا حديد، وأنا عيٌّ.

قال: أما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسنَ بك الناس، وأما العيُّ فإني أراك تعبِّرُ عن نفسك، وأما سوءُ الخُلق فيقوِّمك السَّوْط. قم، قد ولَّيتك!

قال: فولاّني، وأعطاني ألفي درهم، فهما أولُ مالٍ تموَّلته[2].

ونقده الجاحظ في هذا فقال: فإن كان إياس عند نفسهِ عييّاً فذاك أجدرُ بأن يهجرَ الإكثار. وبعد، فما نعلمُ أحداً رمى إياساً بالعِيِّ، وإنما عابوه بالإكثار[3]!

وفي رواية أخرى أنه ردَّ جائزة الأمير فقال: ولمَ يعطيني؟

---

(١) يعني حساب التركات والمواريث.

(٢) عيون الأخبار (١٨/١)، المجالسة (١٨٤٧)، أخبار القضاة (٣٥١/١)، العقد الفريد (١٦/١)، تاريخ دمشق (٢٥/١٠).

(٣) البيان والتبيين (٩٩/١).

أيتصدَّقُ عليَّ؟ فقد أغناني الله، أو يعطيني على علمي أجراً؟ فلا آخذُ عليه أجراً. وكانت جائزته عشرة آلاف[1].

ويبدو من الأخبار أن ابن هبيرة ولاّه سوق واسط[2].

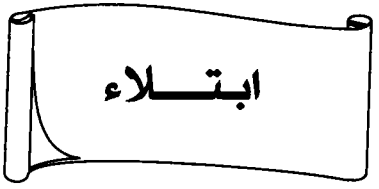

وكان قد سُجن في عهد الحجاج، لسبب لم يُذكر، أو لم أعرفه[3].

وقدم دمشق في عهد عبدالملك، ووفد على عمر بن عبدالعزيز مرة أخرى حين عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة[4]، وكان قد هرب خوفاً على نفسه من أن يُقتَل أو يُفْتَن لأنه لم يُحابِ في قضائه الأمراء والكبراء، كما يأتي في سبب عزله في آخر هذا الكتاب.

وضربه الأمير يوسف بن عمر الثقفي ٥٦ سوطاً وهو كبير في السن، عندما طلبَ منه أن يلي سوق واسط كما وليها

---

(١) أخبار القضاة (٣٥٢/١).
(٢) المصدر السابق (٣٥٣/١).
(٣) أخبار القضاة (٣٥٩/١).
(٤) تاريخ دمشق (٥/١٠)، البداية والنهاية (١١٧/١٣).

لعمر بن هبيرة فأبى[1].

والأمير المذكور كان من جبابرة الولاة في العهد الأموي، ولي العراق لهشام بن عبدالملك، وهو الذي قتل خالد بن عبدالله القسري تحت العذاب، ثم قتله ابن خالد وهو في السجن ثأراً لأبيه.

قلت: ولا شك أن سبب رفض إياس تولي عمل لهذا الأمير الظالم هو خشية أن يتدخل في شؤونه كما تدخل عدي بن أرطاة، فلا يُفسحُ له مجال الحكم بالحق دائماً، ومن ثم يخشى صولة الأمير ويترقب فتنته، والعاقل من يعتبرُ مما سبق، وما تعرَّضَ له من ضربٍ وإهانةٍ أفضل من أن يلي أمراً فيركنَ فيه إلى ظالمٍ ويحيفَ على أهل الحق.

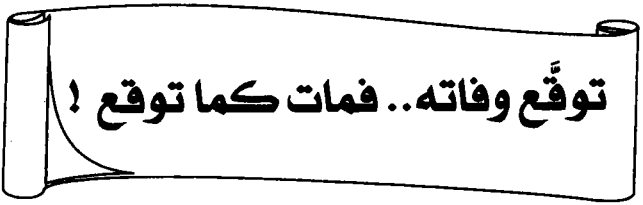

ذكر أن إياساً رأى في المنام أنه لا يدرك النحر. فخرج إلى ضيعة له بـ «عبدسي»، وهي قرية من أعمال دست ميسان بين البصرة وخوزستان، فتوفي بها سنة ١٢٢هـ. وقال غيره ١٢١هـ، وعمره ٧٦ سنة.

---

(١) أخبار القضاة (١/٣٥٢ ـ ٣٥٣)، تهذيب الكمال (٣/٤٤٠)، الطبقات الكبرى (٧/٢٣٥).

وقال إياس في العام الذي توفي فيه: رأيتُ في المنام كأني وأبي على فرسين، فجرَيا معاً فلم أسبقه ولم يسبقني، وعاش أبي ستاً وسبعين سنة، وأنا فيها.

فلما كان آخر لياليه قال: أتدرون أي ليلة هذه؟ ليلةٌ أستكملُ فيها عمرَ أبي.

ونام فأصبح ميتاً! وكانت وفاة أبيه سنة ٨٠هـ. رحمه الله تعالى[١].

قلت: والعجيب أنه رويت قصةٌ قريبة من هذه عن والده أيضاً وهو يستعدُّ للموت!

فقد روى قريش بن أنس قال: قدمَ معاويةُ بن قُرَّة من سفر، فدخل على ابنه إياس بن معاوية فقال: إن هذا ليومٌ ما ينبغي أن أكونَ فيه حيّاً، إني رأيتُ في النوم كأني وأبي نستبقُ إلى غابة، فأدركناها معاً، وقد بلغتُ سِنَّ أبي اليوم، فما أُخْرَجُ إلا ميتاً[٢]!

(١) وفيات الأعيان (١/٢٥٠)، الوافي بالوفيات (٩/٤٦٨)، تاريخ مدينة دمشق (١٠/٣٥ ـ ٣٦)، شذرات الذهب (٢/٩٥)، أخبار القضاة (١/٣٧٣ ـ ٣٧٤)، تهذيب الكمال (٣/٤٤٠)، الطبقات الكبرى (٧/٢٣٥)، الكامل في التاريخ (٤/٢٥٠) (طبعة دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ).

(٢) تهذيب الكمال (٢٨/٢١٧).

الفصل الثاني

أحداث وتجارب

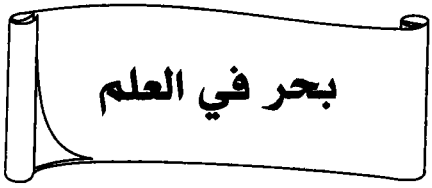

لما قَدِم إياس بن معاوية واسطاً، جعلوا يقولون: قَدِمَ البَصْريُّ، قَدِمَ البَصْريُّ. فأتاه ابن شُبْرُمة[1] بمسائل قد أعدّها له، فجلس بين يديه، فقال: تأذن أن أسألك؟

قال: ما ارتبتُ بكَ حتى استأذنْتَني. إن كانت لا تُعِيبُ القائل، ولا تؤذي الجليسَ فسل.

فسأله عن بضع وسبعين مسألة، فما اختلفا يومئذ إلا في ثلاث مسائل أو أربع، ردَّه فيها إياس إلى قوله[2]!

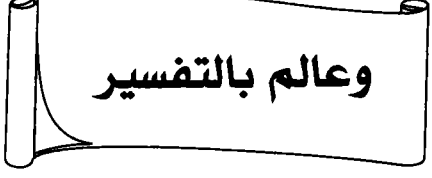

وعن سُفيان بن حسين قال: سألني إياس بن معاويةَ فقال: إني

---

(١) هو فقيه أهل الكوفة وقاضيها عبدالله بن شبرمة الضبي. كان عفيفاً صارماً عاقلاً فقيهاً، يشبه النساك، ثقة في الحديث، حسن الخلق، جواداً. ت١٤٤هـ. تهذيب الكمال (٧٦/١٥).

(٢) تهذيب الكمال (٤١٠/٣)، الطبقات الكبرى (٢٣٤/٧)، أخبار القضاة (٣٥٨/١)، تاريخ دمشق (١٤/١٠)، البداية والنهاية (١٢٠/١٣).

أراك قد كَلِفْتَ بعلمِ القُرآنِ، فاقرأ عليَّ سورةً حتى أنظُرَ فيما عَلِمْتَ.

قال: ففَعَلْتُ. فقال:

احفظ عني ما أقول لك: إياكَ والشَّنَاعَةَ في الحديث، فإنَّه قَلَّ ما حَمَلَها أحَدٌ إلاّ ذَلَّ في نفسِهِ وكُذِّبَ في حديثه[1].

وحدَّث أبو بشر أن الناس أطافوا به فسألوه عن هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2] فقال: الإسراف ما قصَّرتَ فيه عن حقِّ الله عزَّ وجلَّ[3]!

الحياء.. في حديث

وحدَّث إياس قال: كنا عند عمر بن عبدالعزيز، فذُكر عنده الحياء فقيل: الحياء من الدين. فقال عمر: بل هو الدِّين كلُّه.

فقال إياس: حدثني أبي عن جدي قال: كنا عند النبي ﷺ فذُكِرَ عنده الحياء، فقالوا: يا رسولَ الله، الحياءُ من الدين؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**بل هو الدِّينُ كلُّه**».

---

(١) تهذيب الكمال (٤١٢/٣).
ولعله قال له ذلك لأن بعضهم ضعَّفه في الحديث، لكنه ثقة في غير الزهري باتفاقهم، كما في تقريب التهذيب.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٤١.

(٣) حلية الأولياء (١٢٤/٣)، خالصة الحقائق (٢٢١/١).

ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الحياء والعفاف والعيَّ ـ عيَّ اللسان لا عيَّ القلب ـ والعملَ من الإيمان، وإنهن يزدْنَ في الآخرة وينقصنَ من الدنيا، وما يزدْنَ من الآخرة أكثر مما يزدن في الدنيا**».

قال إياس: فأمرني عمر بن عبدالعزيز فأمليتها عليه، وكتبها بخطه، ثم صلى بنا الظهر وإنها لفي كفه ما يضعها؛ إعجاباً بها[1]!

بين أجرة البنّاء.. وأجرة العامل

وقيل له: العالمُ أفضلُ أم العَابِدُ؟

قال: العَالم. قيل: مَثِّلْ لنا حتىٰ نعرفه.

فقال: أما ترون ـ يعني البَنَّاء ـ يجيءُ هذا ينقلُ الجَصّ وهذا ينقل الآجُرَّ، وهذا يُهيِّيء، فإذا كان نصف النهار أُتيَ بشربة سويق فشَرب، فإذا كان الليل، أُعطيَ كلُّ واحدٍ منهم درهماً، وأُعطيَ هذا أربعة دراهم، خمسة دراهم[2]؟

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٢٥/٣)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق رقم (٨٧) وقال محققه: إسناده ضعيف. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩/١٩)، قال في مجمع الزوائد (٢٦/٨): وفيه عبدالحميد بن سوار وهو ضعيف، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/١٠ ـ ٧) بعدة طرق، ووكيع في أخبار القضاة (٣١٨/١).

(٢) تاريخ دمشق (٢٢/١٠)، تهذيب الكمال (٤١٢/٣).

مشاورة في خصومة

أَتَى رجلٌ إياسَ بنَ مُعاوية، يشاوره في خُصومة، فقال له: إن أردتَ القضاء فعليك بعبدالملك بن يَعْلَىٰ، فهو القاضي[1]، وإن أردتَ الفُتيا، فعليك بالحَسَن، فهو مُعَلِّمي، ومعلِّم أبي، وإن أردتَ الصُّلحَ فعليك بحُمَيْد الطَّويل، وتدري ما يقول لك؟ يقول: دَعْ شيئاً من حَقِّك، وخُذ شيئاً. وإن أدرتَ الخُصومة، فعليك بصالح السَّدُوسيّ، وتدري ما يقول لك؟ يقول لك: اجحد ما عليك، وادّع ما ليس لك، واستَشْهِد الغُيَّب[2]!

درسٌ لا يُنسى!

وعن سُفيان بن حُسَين: كنت عند إياس بن معاوية، وعنده رجل، تخوَّفْتُ إن قمتُ من عنده أن يَقَعَ فِيَّ. قال: فَجلست حتىٰ قامَ، فلما قامَ ذكرتُهُ لإياس، قال: فجعل ينظر في وجهي،

---

(١) كان على قضاء البصرة يومئذ.

(٢) عيون الأخبار (٦٢/١)، تهذيب الكمال (٤١٨/٣)، نثر الدر (١٥٤/٥)، تاريخ الإسلام ص(٤٣)، تاريخ دمشق (١٨/١٠)، المنتظم (٢٢١/٧)، أخبار القضاة (٣٥٠/١؛ ١٧/٢، ٤٤).

ولا يقول لي شيئاً، حتى فَرغت، فقال لي: أغزوتَ الدَّيلمَ؟ قلت: لا، قال: فغزوتَ السِّند؟ قلت: لا. قال: فغزوت الهند، قلت لا. قال: فغزوت الروم؟ قلت: لا. قال: يَسْلم منك الدَّيلم، والسِّند، والهند، والروم، وليس يسلم منك أخوك هذا؟!! قال: فلم يَعُدْ سفيان إلى ذاك[1]!

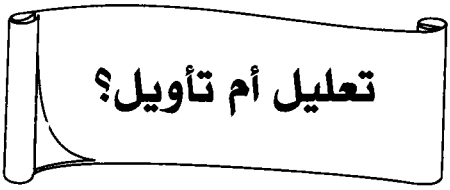

ودخل هو وأبوه «معاوية» إلى مسجد فيه قاصٌّ يقصُّ عليهم، فلم يبقَ أحدٌ من القوم إلا بكى، غير إياسٍ وأبيه. فلما تفرَّقوا قال معاوية بن قُرَّة لابنه: أتُرانا شرَّ أهلِ هذا المجلس؟

قال إياس: إنما هي رِقَّةٌ في القلوب، فكما تُسرع إلى الدمعةِ فكذلك تُسرعُ إليها الفتنة!

فقال معاوية: ما أدري ما تقول يا بني، غير أنهم قد تعجَّلوا الرقَّة ورجاء الرحمة[2]!

---

(١) تهذيب الكمال (١٤٢/٣)، البداية والنهاية (١٢١/١٣)، تاريخ دمشق (١٨/١٠).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا رقم (٣٩)، تهذيب الكمال (٢١٤/٢٨).

الثناء من الجزاء

وقال العوّام بن حوشب: التقيتُ أنا وإياس بن معاوية بذاتِ عِرقٍ[1]، فذكرنا إبراهيم التَّيْميَّ فقال: لولا كرامته عليَّ لأَثنيتُ عليه. قلت: أتعرفه؟ قال: نعم. قلتُ: فَلِمَ تكره أن تثنيَ عليه؟ قال: إنّه كان يقال: إنّ الثَّناء من الجَزَاء[2]!

بين الراعي والرعية

وقالَ أيضاً: لا بُدَّ للناسِ من ثلاثةِ أشياء: لا بُدَّ لهم أن تأمَنَ سُبُلهم، ويُختارَ لحكمهم حتىٰ يعتدل الحُكم فيهم، وأن يُقَامَ لهم بأمر الثُّغور التي بينهم وبين عَدوهم، فإنَّ هذه الأشياء إذا قام بها السُّلطانُ، احتمل الناسُ ما كان سوىٰ ذلك مِن أَثَرةِ السلطان، وكلِّ ما يكرهون[3]!

---

(١) هو ميقات الحج لأهل العراق من جهة نجد.

(٢) تهذيب الكمال (٤٣٤/٣)، أخبار القضاة (٣٥٧/١).

(٣) تهذيب الكمال (٤١٤/٣)، أخبار القضاة (٣٥٦/١)، تاريخ دمشق (١٩/١٠).

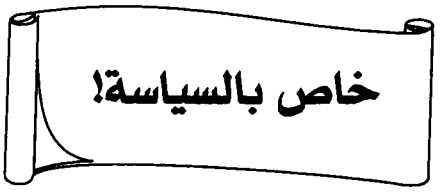

وقال له أمير البصرة عدي بن أرطاة: دُلَّني على قومٍ من القُرّاء أُوَلِّهم.

فقال له إياس: القُرّاءُ ضربان: فضربٌ يعملون للآخرةِ ولا يعملون لك، وضربٌ يعملون للدنيا، فما ظنُّكَ بهم إذا أنت ولَّيتهم فمكَّنتهم منها؟

قال: فما أصنع؟

قال: عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فولِّهم[1]!

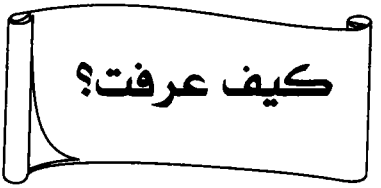

وقال لقومٍ من أهل مكة: قدمنا بلادكم فعرفنا خياركم وشراركم!

---

(١) عيون الأخبار (١٧/١)، محاضرات الأدباء (١٦٥/١، ٣٣١)، أسرار الحكماء ص(١٠٣ ـ ١٠٤)، حدائق الأزاهر ص(٢٨٣)، آداب الملوك للثعالبي ص(١٣٧) رقم (٣٦٧)، العقد الفريد (١٤/١)، التذكرة الحمدونية (٤٣٤/١).

قالوا: وكيف عرفتهم؟

قال: كان معنا أخيار وأشرارٌ نعرفهم، فلحقَ كلُّ جنسٍ بجنسه[1]!

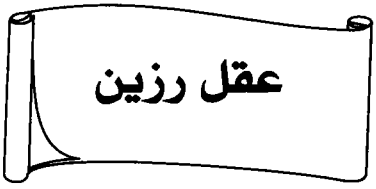

ومرَّ به رجلان، فعرَجَ عليه أحدهما، وتجاوزَ الآخر. فكأن المعرِجَ عليه أرادَ أن يغريَهُ به[2]، فقال إياس: أما أنت فعرجتَ بكرمك، وأما هو فاستمرَّ على ثقته[3]!

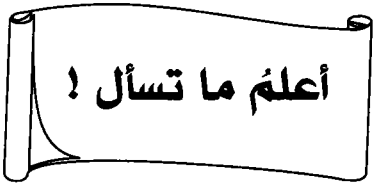

وقال إسحق بن سويد العدوي لإياس: أخبرني عن رَجُلين؛ قال إياس: اسكت، فإني أعلم ما تريد أن تسألني عنه، قال: قل. قال: تريد أن تقول: أخبرني عن رجلين بالمِصْرِ مسلمين صالحين خيّرين فاضلين، لا يتزاوران ولا يتلاطفان ولا

---

(١) نثر الدر (٥/١٥٣).

(٢) أي أن الأول الذي مرَّ وسلَّم على إياس أراد أن يفسدَ رأيه على الآخر الذي مرَّ ولم يعرج عليه.

(٣) تاريخ مدينة دمشق (١٠/٢٠).

يلتقيان، الحَسن وابن سيرين. قال: ما أردت غيرهما[1].

قلت: وهو الآخر ما كان يزورهما. رحمهم الله جميعاً، فقد كانوا قُرناء.

الولـــدُ أبـــرُّ؟

وكان في حلقة، فتذاكروا: الولَدُ أبرُّ أم الوالدُ؟ فاجتمع رأيهم على أن الوالدَ أبرُّ، وإياس مُشْتَغل في شيءٍ، فلما فَرَغَ أقبل عليهم فأخبروه، قال: فإنّي أُخالفكم، أزعم أنّهما إذا كان بَرَّيْنِ جميعاً، فالولدُ أَبَرُّ. قالوا: وكيف؟ قال: لأن بِرَّ الوالد طِباعٌ يطبعه الله عليه، لا يستطيع إلا ذاك، وبِرُّ الوَلَدِ بوالده تَشَدُّدٌ منه لما افترض الله عليه من حقّه[2]!

ما تعجبون من الدنيا؟

وتذاكروا عند إياس الدنيا؛ فقال: ما تَعجبون من الدنيا

---

(١) أخبار القضاة (١/٣٧٠).

(٢) تهذيب الكمال (٣/٤٣٣)، أخبار القضاة (١/٣٥٦).

وإنما هي خَمسٌ نبات، وخَمسٌ حيوان، ثم يعود إلى ثلاث، فالحيوان ذو رجلين، وذو أربع، وخَرَشة[1]، وسمكة، والنبات شجرة ذات ساق، وغير ذات ساق، وبقلة وزرع، وحشيشة، وتعود إلى ثلاثة: ولاد وبيضة ونبات[2].

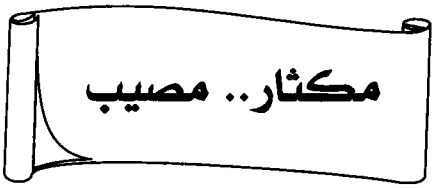

وكان يقول: إن الناس لا يعرفون عيوب أنفسهم، وأنا أعرفُ عيب نفسي. أنا رجلٌ مكثار. يعني كثرة الكلام.

قال ابن شوذب: وكان كذلك، كان لا يجلسُ مجلساً إلا غلبَ عليه!

كما عيَّره الأعمش بهذا الأسلوب فقال: دعوني إلى إياس، فإذا رجلٌ كلما فرغ من حديث أخذ في الآخر.

ولكثرة كلامه قال له القاضي عبدالله بن شبرمة: أنا وأنت لا نتفق، أنت لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسمع!!

---

(١) الخَرشة: الذبابة.

(٢) أخبار القضاة (١/٣٧٠).

ويقول: ما من رجلٍ عاقلٍ إلا وهو يعرف عيب نفسه.

أو يقول: كل من لا يعرف ذنبه أحمق.

ثم يبيِّن عيب نفسه وأنه كثير الكلام. لكنه يردف ذلك بقوله: أنا والله مع ذلك، وإن أكثرتُ، ما تدبَّرَ عاقلٌ قولي إلا وجدَ فيه بعض ما ينتفع به[1]!

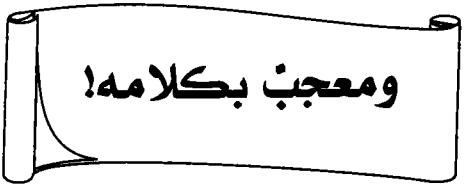

- وقالوا له: إنكَ معجبٌ برأيك؟

فقال: لو لم أُعجب به لم أقضِ به.

- وقيل له أيضاً: ما فيك عَيْب غير أنك مُعْجَب بقولك. فقال لهم: أفَأعجَبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحق أن أُعْجَبَ بما أقول وما يكون مني.

---

(١) تاريخ الإسلام ص(٤٤)، صفة الصفوة (٢٦٣/٣)، تاريخ دمشق (٣٣/١٠، ٣٤، ٣٥)، البداية والنهاية (١٢٦/١٣)، الوافي بالوفيات (٤٦٧/٩)، أخبار القضاة (٣٤٦/١، ٣٤٧)، تهذيب الكمال (٤٣٦/٣)، عيون الأخبار (٢٧٥/١)، حلية الأولياء (١٢٤/٣)، الطبقات الكبرى (٢٣٤/٧)، البيان والتبيين (٩٨/١؛ ٣١٥/٢)، نثر الدر (١٣٩/٥)، الكامل للمبرد (٥٥٩/٢).

وفي مصادر أنه يُتَّهم بكثرة الكلام فيجيب بذلك الجواب.

ويزيدهم أيضاً فيقول: أفبصوابٍ أتكلم أم بخطأ؟

قالوا: بصواب.

قال: فالإكثار من الصواب أفضل.

أو يقول: كلما كثر الحقُّ فهو خير[1]!

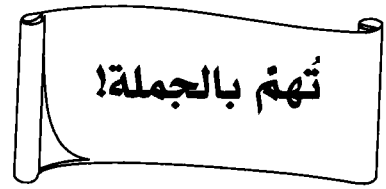

ولعله واجه تهماً في أكثر من موقف، وأكثر من مجلس!

فقد قيل له: فيك أربع خصال: دمامة، وكثرة كلام، وإعجاب بنفسك، وتعجيلك بالقضاء. فقال:

ـ أما الدمامة فالأمرُ فيها إلى غيري.

ـ وأما كثرةُ الكلامِ فبصواب أتكلم أم بخطأ؟

قالوا: بصواب.

قال: فالإكثارُ من الصواب أمثل.

---

(١) تهذيب الكمال (٣/٤٣٥، ٤٣٦)، المجالسة (١٨٤٨، ١٨٤٩)، تاريخ الإسلام ص(٤٤)، أخبار القضاة (١/٣٤٦، ٣٤٧)، البداية والنهاية (١٣/١٢١ ـ ١٢٢)، البيان والتبيين (١/٩٩)، تاريخ دمشق (١٠/٢٨، ٣٠، ٣١).

ـ وأما إعجابي بنفسي أفيعجبكم ما ترون مني؟

قالوا: نعم.

قال: فإني أحقُّ أن أعجبَ بنفسي.

ـ وأما قولكم إنك تعجلُ بالقضاء، فكم هذه؟ وأشار بيده خمسة.

فقالوا: خمسة.

فقال: عجلتم. ألا قلتم واحد اثنان وثلاثة وأربعة وخمسة؟

قالوا: ما نعدُّ شيئاً قد عرفناه!

قال: فما أحبسُ شيئاً قد تبيَّن لي فيه الحكم[1]!

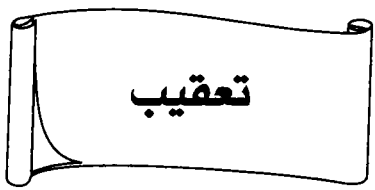

لكن الجاحظ لم يدعه بدون تعليق! واعتبر قول إياس «الزيادة من الخير خير» فلسفة لا تقنع، قال:

وليس كما قال. للكلام غاية. ولنشاط السامعين نهاية، وما

(١) حلية الأولياء (١٢٣/٣)، صفة الصفوة (٢٦٤/٣)، المنتظم (٢٢١/٧).

فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضلُ الذي هو الهَذَر، وهو الخَطَل، وهو الإسهابُ الذي سمعتَ الحكماء يعيبونه.

أما قوله: «أفأعجبكم قولي... فأنا أحق أن أعجب به» فقد علق عليه بقوله: هذا لا يعتبر عُجْباً، فالمعرفة لا تدخل في باب التسمية بالعجب، والعجب مذموم.

قال: وإنما العُجْب إسراف الرجل في السرور بما يكون منه والإفراط في استحسانه حتى يظهر ذلك في لفظه وشمائله[1]!

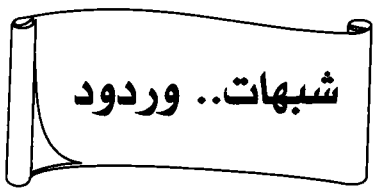

وقال خالد بن صفوان لإياس: لولا خِصالٌ فيك كنتَ أنت الرَّجل. قال: وما هي؟ قال: تقضي قبل أن تَفْهم، ولا تُبالي مع من جَلَسْتَ، ولا تبالي ما لبستَ.

قال: أمّا قولك: إنّي أقضي قبل أن أفهم، فأيهما أكثر ثلاثٌ أو ثنتان؟ قال: لا، بل ثلاث، ومَن لا يفهم هذا؟. قال: أنا كذلك. لا أقضي حتىٰ أَفْهَم.

وأمّا قولك: لا أبالي مع من جَلَست، فإنّي أجلس مع من

(١) البيان والتبيين (١/٩٨ ـ ٩٩).

يرى لي أحبُّ إليَّ من أن أجلس مع من أَرَىٰ له.

وأمّا قولك: لا أُبالي ما لَبست، فإنّي ألبسُ ثَوْباً أقي به نفسي، أحبُّ إليّ من أن ألبس ثوباً أقيه بنفسي[1]!

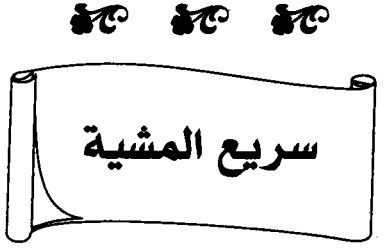

وقال له عدي بن أرطاة: إنك لسريع المشية.

فقال: ذاك أبعدُ من الكِبْر، وأسرعُ في الحاجة[2]!

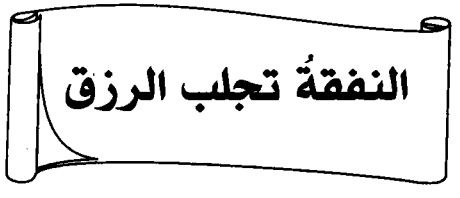

وروى أبو الحسن المدائني قال:

دخل رجُلٌ على إياس بن معاوية فشكا إليه شدّة المؤونة وكثرة الإنفاق؛ فقال له إياس: إنّ النَّفقة داعية الرِّزق، وهو جالس بين بابين؛ فقال للرجل: أغلق هذا الباب. فأغلقه،

---

(١) تهذيب الكمال (٤٣٤/٣)، البداية والنهاية (١٢٤/١٣) (وانظر ١٢١/١٣ ـ ١٢٢)، تاريخ دمشق (٢٦/١٠)، أخبار القضاة (٣١٦/١).

(٢) التذكرة الحمدونية (٩٧/٣)، أخبار القضاة (٣٧٢/١).

فقال: هل يَدْخل الرِّيح البيت؟ قال: لا؛ قال: فافتحه. ففتحه، فجعلت الرِّيح تخْرق البيت؛ فقال: هكذا الرِّزق، أغْلقتَ فلم يَدْخل الرِّيحُ، وكذلك إذا أمسكت لم يَأْتك شيء[1]!

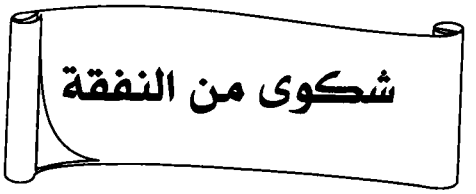

واشتكى إليه أبان بن الوليد كثرة نفقته، فقال له إياس: أرأيت بيتاً له بابان، وبيتاً له باب، أيهما يدخلُ إليه الريحُ أكثر؟

قال: البيتُ الذي له بابان.

قال: فكذلك أنت، إنما تُنفق بقدْرِ ما يَدْخلُ عليك[2]!

قلت: ولعله الخبر السابق نفسه ورد بصيغة أخرى.

وقال رحمه الله: إن الرجل يكونُ له ألفٌ فيُصلح فتصلحُ

---

(١)(٢) أخبار القضاة (١/٣٥٤).

له الغَلَّة[1]، ويكونُ له ألفانِ فيُنفق ألفين فيُصلح فتصلحُ له الغَلَّة، فيكونُ له ألفان فيُنفقُ ثلاثة آلاف فيبيعُ العقارَ في فضل النفقة[2]!

مالٌ.. يأكل المال!

وقال له سعيد بن هارون: يا أبا واثلة، ما لك لا تشتري دابَّة؟ أراك تستعير من الناس!

قال: يا بني، وما أصنعُ بمالٍ يأكلُ المال[3]؟!

أغنـــى

وقال أبان بن الوليد لإياس بن معاوية: أنا أغنى منك!

فقال إياس: بل أنا أغنى منك!

---

(١) يريد أن مصروفه ألف فيتدبره.

(٢) البخلاء للجاحظ ص(٢٩٩)، تهذيب الكمال (٤١٤/٣)، تاريخ دمشق (٢٠/١٠)، أخبار القضاة (٣٣٤/١، ٣٥٥).

(٣) أخبار القضاة (٣٥٦/١).

قال أبان: وكيف ولي كذا وكذا؟! وعدَّدَ أموالاً.

قال: لأن كسبكَ لا يفضلُ عن مؤونتك، وكسبي يفضلُ عن مؤونتي[1]!

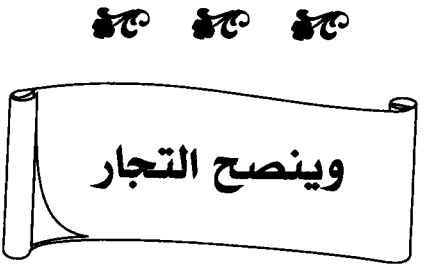

حدَّث صَالح بن سُليمان قال: خرج قومٌ من أهل واسط من التُّجار إلى قرية عبدسي؛ فقالوا: نَأتي إياس بن مُعاوية، فنُسلم عليه، فأتوه؛ فقال لهم يا مَعاشر التجَّار احْفظوا عني خِصالاً ثلاثاً تَنْتفعون في تِجارتكم: لا يَشْتري الرَّجل بأكثر من ماله، فإن كانت وضيعة أتت على رأس ماله كُلِّه، ولا يشارك إلا شريكاً واحداً؛ فإن أكثر، فاثنين؛ فإن الشُّركاء إذا كثروا تَواكلوا، ولا يَشْتري من رَجُل له بضاعة ليس له غيرها، فإن التوىٰ أمرٌ أو أصابته نكبة لم يَعْذره، وألح عليه وحَرَّق[2] به؛ اشتروا من أهل السَّعة واليَسار، فإنهم يُؤَخرون وَيَحْتملون[3]!

---

(١) البيان والتبيين (٤/٩١)، أخبار القضاة (١/٣٥٧) في قصة طويلة.

(٢) حرَّق الرجل إذا ساء خُلقه، أو بقي متحيِّراً من هم أو شدَّة.

(٣) أخبار القضاة (١/٣٥١).

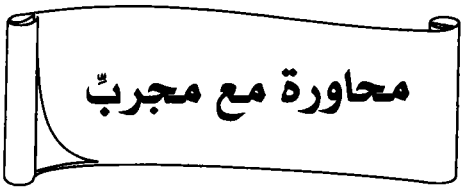

قال إياس: خرجتُ في سفرٍ ومعي رجلٌ من الأعراب، فلمّا كان ببعض المناهل لقيَهُ ابنُ عمٍّ له، فتعانقا وتعاتبا، وإلى جانبهما شيخٌ من الحي، فقال لهما الشيخ: أنعما عيشاً، إن المعاتبة تبعث على التجني، والتجنّي يبعث على المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرتهُ العداوة.

فقلت للشيخ: من أنت؟

قال: أنا ابن تجربة الدهرِ ومَنْ بَلا تلوُّنَهُ.

فقلت له: ما أفادك الدهر؟

قال: العلمُ به.

قلت: فماذا رأيت أحمد؟

قال: أن يُبقي المرءُ أُحدوثةً حسنةً بعده.

قال إياس: فلم أبرح ذلك الماءَ حتى هلك الشيخ وصليتُ عليه[1]!

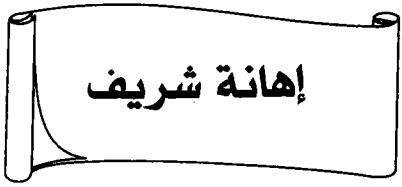

ولما عزله عديُّ بن أرطاة عن قضاء البصرة فرَّ منه إلى

(١) عيون الأخبار (٣/٣٠)، التذكرة الحمدونية (٥/٣١).

عمر بن عبدالعزيز، فوجده قد مات. فكان يجلس في حلقة في جامع دمشق، فتكلَّم رجل من بني أمية، فردَّ عليه إياس، فأغلظ له الأموي، وقد رأوه أحمر دميماً باذَّ الهيئة قشِفاً، فاستهانوا به، فقام إياس، فقيل للأموي: هذا إياس بن معاوية المزني!

فلما عاد من الغد اعتذر إليه الأموي وقال: لم أعرفك، وقد جلستَ إلينا بثيابِ السُّوقة وكلَّمتَنا بكلام الأشراف، فلم نتحمّل ذلك[1]!

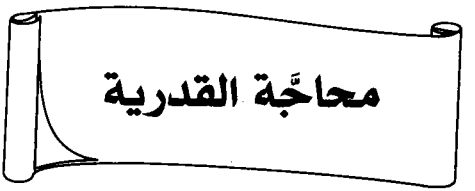

وكانت له جولات علمية مع القدرية، مجوس هذا الأمة، فقد كان معاصراً لغيلان القدري، وكلاهما كانا موجودين في خلافة خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله.

وغيلان هو ثاني من تكلم في القدر بعد معبد الجهني، وهما يجاهران بمخالفة عقيدة الأمة، وأن القدر خيره وشرَّه من العبد. وقد أفتى العالم الجليل الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ.

---

(١) البداية والنهاية (١١٧/١٣)، البيان والتبيين (٩٨/١)، تاريخ دمشق (٩/١٠)، نثر الدر (١٥٤/٥).

وهذه طائفة من محاوراته مع هذه الفرقة الضالة.

وهو يذكر أولاً فيقول: ما خاصمتُ أحداً من أهل الأهواء بعقلي كلِّه إلا القدرية!

وهذا يعني اهتماماً بالغاً منه بعقيدة أهل السنة، ودفع الأقاويل الباطلة التي قد تزيغ عقول بعض البسطاء أو المفكرين.

قال بعضهم: اكترى إياس بن معاوية من الشام قاصداً الحجَّ، فركبَ معه في المَحْمَل غيلان القَدَري، ولا يعرفُ أحدُهما صاحبَهُ. فمكثا ثلاثاً لا يكلِّم أحدهما صاحبه. فلمّا كان بعد ثلاث تحادثا فتعارفا، وتعجَّب كلُّ واحدٍ منهما من اجتماعه بصاحبه؛ لمباينةِ ما بينهما في الاعتقاد في القَدَر.

فقال له إياس: هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1]، ويقول أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾[2]، وتقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[3].

ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال العجم ما فيه إثبات القدر.

وتكلم مع بعض القدرية فقال: دخولك فيما ليس لك ظلم منك؟ قال: نعم. قال: فإن الأمر كلَّه لله، فلا تدَّعِ أن لك شيئاً منه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

وقال لهم مرة: أخبروني عن الظلم ما هو؟

قالوا: أَخْذُ ما ليس له.

فقال: فإن الله تعالى له كل شيء.

وقال الأصمعيّ عن عَدِيّ بن الفضل البَصْريُّ: اجتمع إياس بن معاوية وغَيْلان عند عمر بن عبدالعزيز، فقال عُمر: أنتما مختلفان وقد اجتمعتما فتناظرا تتفقا، فقال إياس: يا أمير المؤمنين إن غيلان صاحبُ كلام، وأنا صاحب اختصار، فإمّا أن يسألني ويختصر، أو أسأله وأختصر، فقال غَيْلان: سَلْ.

فقال إياس: أَخْبِرني ما أفضل شيء خَلَقَهُ الله عَزَّ وجل؟ قال: العَقْل، قال: فأَخْبِرني عن العَقْلِ مَقْسُومٌ أو مُقْتَسَمْ؟ فأمسك غيلان، فقال له: أجب. فقال: لا جواب عندي! فقال إياس: قد تبيّن لك يا أمير المؤمنين أن الله تبارك وتعالىٰ يَهَبُ العقول لمن يشاء، فمن قَسَمَ له منها شيئاً ذَادَهُ به عن المَعْصية، ومن تركه تَهَوَّر.

قالَ الأَصمعيُّ: وحدثني غيرُهُ أن غَيْلان وإياساً التقيا فتساءَلا، فقال إياس: أسألكَ أم تسألني؟ فقال له غيلان: سَلْ. فقال له إياس: أي شيء خَلَقَ الله أفضلَ؟ قال: العَقْلُ. قال إياس: فمن شاء استكثَر منه، ومن شاء استقلّ؟

فسكتَ غيلان مليّاً ثم قال: سَلْ عن غير هذا.

فقال له إياس: أخبرني عن العِلْمِ قَبْلُ أو العَمَلِ؟ فقال غيلان: والله لا أجيبك فيها.

فقال إياس: فدعها، وأَخْبرني عن الخَلْقِ، خَلَقَهُم الله مُخْتَلِفين أو مُؤْتَلِفين؟ فنهضَ غَيْلان وهو يقول: والله لا جَمَعَني وإِياك مجلسٌ أبداً!

قال الأصمعيّ: وفي حديث عَدِيٍّ: أن غيلان قال لعُمر: أتوب إلى الله، ولا أعود إلى هذه المَقَالة أبداً، فدعا عليه عُمر إن كان كاذباً، فأُجِيبت دعوتُهُ[1].

(١) تهذيب الكمال (٤١٦/٣)، البداية والنهاية (١١٩/١٣، ١٢٠)، عيون الأخبار (١٤٣/٢)، حلية الأولياء (١٢٤/٣)، تاريخ مدينة دمشق (١٥/١٠، ١٦)، حدائق الأزاهر ص(٥٣)، العقد الفريد (١٩٢/٢).

الفصل الثالث

آراء وأقوال

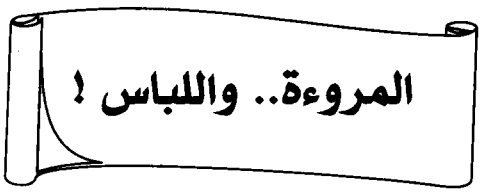

عن سُفيان بن حُسَين قال: قلتُ لإياس بن مُعاوية: ما المرُوءَة؟

قال: أمّا في بَلَدِك وحيثُ تُعْرَفُ، فالتقوىٰ، وأمّا حيثُ لا تُعْرف، فاللِّباسُ[1]!

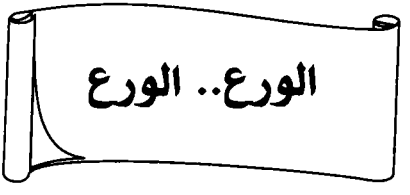

وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن: قال لي إياس بن مُعاوية: يا رَبيعة، كلُّ ما بُنيَ على غير أساس فهو هَبَاءٌ، وكلُّ ديانة أُسِّسَتْ علىٰ غير وَرَع فهي هَبَاءٌ[2].

---

(١) السنن الكبرى (٩٥/١٠) (طبعة دائرة المعارف العثمانية)، تهذيب الكمال (٤١٢/٣)، تاريخ دمشق (٢١/١٠)، بهجة المجالس (٦٤٤/١/٢)، تاريخ الإسلام ص(٤٢)، أخبار القضاة (٣٥٣/١).

(٢) تهذيب الكمال (٤١٢/٣)، تاريخ دمشق (٢٠/١٠)، تاريخ الإسلام ص(٤٢).

وفي مصدر آخر أنه قال له: كلُّ بنيان بُني على أساس أعوج لم يستقم بنيانه[1].

ويقول رحمه الله: كان أفضلهم عندي - يعني الماضين - أسلمهم صدراً، وأقلُّهم غيبة[2]!

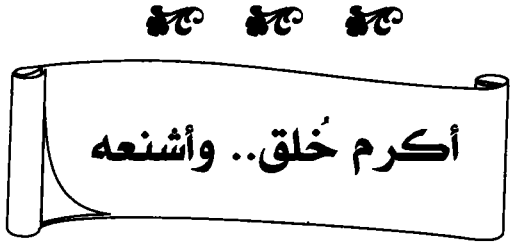

وعن الأَصْمَعيِّ: قال إياس بن مُعاوية: امتحنتُ خِصالَ الرِّجالِ، فوجدتُ أَشرَفَها صِدقَ اللسان، ومَن عُدِمَ فَضيلة الصِّدقِ فقد فُجِعَ بأكرمِ أخلاقه[3].

وفي رواية، أو أنه خبر آخر نُقل عنه: مَنْ عَدِمَ فضيلة العقل فقد فُجع بأكرم أخلاقه[4].

وقال رحمه الله:

ما يَسُرُّني أن أكذب كِذْبةً، لا يطلع عليها إلاّ أبي مُعاوية بن قُرَّة، لا أُسأَل عنها يوم القيامة، وإنَّ لي الدنيا

---

(١) أخبار القضاة (٣٥٦/١).

(٢) حلية الأولياء (١٢٥/٣)، أخبار القضاة (٣٢٣/١).

(٣) تهذيب الكمال (٤١٢/٣).

(٤) تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات ١٢١ - ١٤٠هـ، ص(٤٢)، البداية والنهاية (١٢٢/١٣)، تاريخ دمشق (٢٠/١٠).

بحذافيرها[1]!

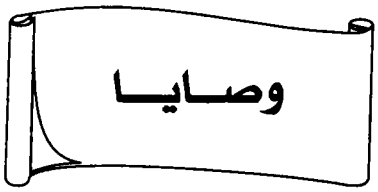

ونصح تلميذه سفيان بن حسين الواسطي بقوله:

لأن يكون في فَعَالِ الرجلِ فضلٌ عن قوله، أجملُ من أن يكونَ في قولهِ فضلٌ عن فَعَاله[2].

يعني أن يكون المرءُ عاملاً أكثر من أن يكون قائلاً...

- ووصَّاهُ بقوله:

أراك تطلب الأحاديث والتفسير، فإياك والشفاعة، فإن لها ذُلاً[3].

ولعله في هذا يحثُّه على التكسُّبِ دون الانقطاع إلى العلم؛ حتى لا يحتاج إلى الآخرين.

وأوصى بنيه فقال:

---

(١) حلية الأولياء (١٢٣/٣)، تهذيب الكمال (٤١٢/٣)، مساوىء الأخلاق ومذمومها رقم (١٣٨) (وذكر محققه أن إسناده حسن)، مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا رقم (١٣٢)، التذكرة الحمدونية (٥١/٣)، تاريخ دمشق (١٥/١٠)، الكامل للمبرد (٧٥٠/٢)، البداية والنهاية (١١٩/١٣).

(٢) تهذيب الكمال (٤١٢/٣)، المنتقى من مكارم الأخلاق للخرائطي رقم (٨٥)، تاريخ دمشق (١٧/١٠، ١٨)، البداية والنهاية (١٢١/١٣)، التذكرة الحمدونية (٢٣٣/٢).

(٣) أخبار القضاة (٣٧١/١).

يا بنيَّ تثبّتوا في من تؤاخون، فإن كانت المحاسنُ أكثرَ من المقابح فتقدموا، وإن كانت المقابحُ أكثرَ من المحاسن فتأخروا، فإنّ التحوّلَ عن الإخاء شديد، وليس الأخ كالثوب يَبْلَى فَيُطْرَح، ولا كالعِلْقِ يُزْهَدُ فيه فَيُسْتَبْدَلُ به[1]!

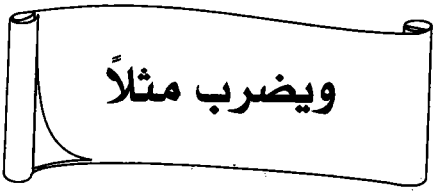

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: قال إياس بن معاوية: لو أخذْتَ عوداً فَقسَتَهُ بعُود حتى يَصير ليس بَيْنهما شيء، ثم قِسْتَ الثّاني إلى ثَالث، والثّالث إلى رابع، إلى العَاشر، ثمَّ قِستَ العاشر إلى الأول: لوجدت بينهما شيئاً بَيِّناً[2]!

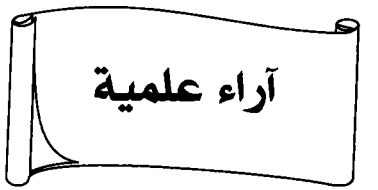

ومن آرائه العلمية قوله:

ـ النخلُ إنما يطولُ في كلِّ أرضٍ بطنُها عذب، فأما

(١) التذكرة الحمدونية (٤/٣٧٥).

(٢) أخبار القضاة (١/٣٥١).

الأرض المِلْحُ فإذا وصلَ العِرْقُ إلى الملحِ كفَّ[1].

- إذا أكلتَ فاتكىء على يسارك، فإن الكبد تقعُ على المعدة فتهضمُ ما فيها من الطعام[2].

- صحة الأبدان مع الشمس[3].

- وقال حماد بن سلمة: دخلتُ على إياس بن معاوية وهو يأكل فالوذجاً فقال: ادنُ فكُلْ، فإن كان شيءٌ يزيدُ في العقلِ فهذا[4]!

- وذكر أن سمك الشبوط خلقٌ مركب من نوعَيْ سمك، فلا يولد من الشبوط نفسه، كالبغل في تركيبه وإنساله[5].

ونقده الجاحظ في ذلك في عدة كتب له[6].

ونقده في أشياء علمية أخرى ذكرت عنه[7]!

(١) المصدر السابق (٣٦٦/١).
(٢) المجالسة (٥/٢٤٣٥).
(٣) الحيوان (١٠٥/٥).
(٤) التذكرة الحمدونية (١٢٤/٩)، أخبار القضاة (٣٥٥/١). وفي المصدر الأخير أنه كان يأكل رطب سكر. والفالوذج حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، وتصنع الآن من النشاء والماء والسكر.
(٥) الحيوان (١٤٩/١)، (١٨/٥ ـ ١٩)، أخبار القضاة (١٦١/١).
(٦) المصدر السابق من كتاب الحيوان، وكتابه «القول في البغال» ص(١٣١).
(٧) الحيوان (٣٦٩/٥).

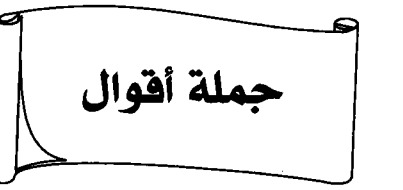

ومن أقواله رحمه الله:

ـ إذا عمل الرجلُ عملاً يريدُ به الله، فإن ذلك يُقبلُ منه وإن عَرَضَ الشيطانُ فيه، وإن أرادَ به الله والناسَ، فإن ذلك يُرَدُّ عليه[١].

ـ وقال: لا تنظرْ إلى ما يصنعُ العالِمُ، فإن العالِمَ قد يصنعُ الشيءَ يكرهه، ولكن سَلْهُ حتى يخبرَك بالحقِّ[٢].

ـ إذا فزعَ الناسُ فلا تكن أوَّل من يقوم[٣].

ـ التاجرُ الفقيه أفقهُ من الفقيه الذي ليس بتاجر[٤].

ـ ما بَعُدَ عهدُ قومٍ بنبيِّهم إلا كان أحسنَ لقولهم وأسوأ لفعلهم[٥].

ـ أكرَهُ للرجلِ أن يكونَ رفيعاً؛ لأن أولئك أقربُ الناسِ من الذنوب[٦].

---

(١) تهذيب الكمال (٤٣٣/٣).

(٢) أخبار القضاة (٣٥٠/١)، تهذيب الكمال (٤٣٣/٣).

(٣) تهذيب الكمال (٤٣٣/٣).

(٤) المصدر السابق (٤٣٣/٣)، أخبار القضاة (٣٥٠/١).

(٥) تهذيب الكمال (٤٣٣/٣)، أخبار القضاة (٣٥٥/١)، تاريخ الإسلام ص(٤٤).

(٦) تهذيب الكمال (٤٣٤/٣).

ـ إياك والشاذَّ من العلم، فإن أقلَّ ما يصيبُ صاحبَهُ الذلَّةَ[1].

ـ ما فَقُهَ رجلٌ قطُّ إلا ساءَ ظنُّهُ بالناس[2]!

ـ البخلُ قيد، والغضب جنون، والشُّكْرُ مفتاح الشرِّ[3].

ـ إفراطُ الحرصِ من قلَّةِ اليقين[4].

ـ مثَّلتُ الدنيا على مثال طائر، فالبصرة ومصر الجناحان، والشام الرأس، والجزيرة الجؤجؤ، واليمن الصُّلب[5].

ـ ومن عجائب أقواله: لا تَزوَّج المرأة إذا كانت تُكلِّمُ فتُسمِع، فتمشي فتُسرِع، ولا تزوج صغيرة الرأس، فإن عقلها في رأسها[6]!

ـ وقال: من يُمنِ المرأةِ الولد، ومن بركتها مياسرتها في المهر[7].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (١٩/١٠).

(٢) أخبار القضاة (٣٥٤/١، ٣٦٠). ولعل السبب هو كثرة علمه ودرايته بأحوال الناس.

(٣) البيان والتبيين (١٩٥/١).

(٤) الأمثال والحكم للماوردي ص(١٩٦).

(٥) أخبار القضاة (٣٥٥/١)، المجالسة (٣١٨).

(٦) أخبار القضاة (٣٣٣/١، ٣٥٦).

(٧) بهجة المجالس ق(٢) ص(٣٧).

ـ وفي استنتاج نادر يقول: شرقيُّ كلِّ بلدٍ أكثرُ أهلاً من غربيِّه، ومن قربَ من النهر كان أقلَّ آنيةً ممن بَعُدَ من النهر[1].

(١) المصدر السابق (٣٦٢/١).

الفصل الرابع

ذكاء.. وفراسة

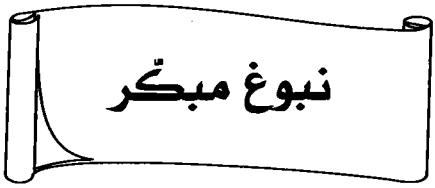

وقد كان نبوغه مبكراً، ويحكي بنفسه قصة له حصلت مع نصارى الشام عندما كان صبياً فقال:

كنت في مكتب بالشام، وكنتُ صبيّاً، فاجتمع النصارىٰ يضحكون من المسلمين، وقالوا: إنّهم يزعمون أنّه لا يكون ثُفْلٌ للطعام في الجَنَّة[1]، فقلت: يا مُعلِّم، أليس تَزْعُمُ أن أكثر الطعام يذهب في البَدَن، فقال: بلى، قلت: فما يُنْكَرُ أن يكون الباقي يذهبه الله في البَدَن كله؟ فقال: أنت شَيْطان[2]!

قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله إياس وهو صغير بعقله، قد ورد به الحديث الصحيح في صفة أهل الجنة، وأن طعامهم ينصرف جُشاءً وعَرقاً كالمسكِ فإذا البطنُ ضامر[3]!

(١) أي أنهم لا يُحْدِثون.

(٢) تهذيب الكمال (٤١٦/٣)، وفيات الأعيان (٢٤٨/١)، التذكرة الحمدونية (١٧٦/٧)، بهجة المجالس (١٠٦/١)، البداية والنهاية (١١٩/١٣)، أخبار القضاة (٢٧٣/١)، تاريخ دمشق (١٤/١٠ ـ ١٥).

(٣) البداية والنهاية (١١٩/١٣).

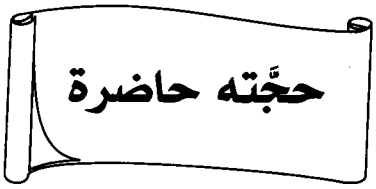

تحاكم إياس وهو صبيٌّ شابٌّ وشيخٌ إلى قاضي عبدالملك بن مروان بدمشق، فقال له القاضي: إنه شيخٌ وأنت شاب، فلا تساوِرْهُ في الكلام.

فقال إياس: إن كان كبيراً فالحقُّ أكبرُ منه.

فقال له القاضي: اسكت.

فقال: ومن يتكلم بحجتي إذا سكتُّ؟

قال القاضي: ما أحسبكَ تنطقُ بحقٍّ في مجلسي هذا حتى تقوم.

فقال إياس: أشهد أن لا إله إلا الله[1].

قال القاضي: ما أظنُّك إلا ظالماً له.

فقال: ما على ظنِّ القاضي خرجتُ من منزلي.

فقام القاضي، فدخل على عبدالملك، فأخبرَهُ خبرَهُ، فقال: اقْضِ حاجتَهُ وأخرجْهُ الساعة من دمشق، لا يُفسدُ علي الناس[2]!

---

(١) أي: ها أنذا نطقت بحق لا مرية فيه.

(٢) البداية والنهاية (١١٧/١٣)، عيون الأخبار (٧١/١)، تهذيب الكمال (٤١٥/٣)، المجالسة (٦٢٠)، حدائق الأزاهر ص(٦٣)، نثر الدر (١٦١/٢)، البيان والتبيين (١٠١/١)، تاريخ دمشق (٨/١٠، ٩).

قال الجاحظ: فإذا كان إياس وهو غلام يُخافُ على جماعة أهل الشام، فما ظنُّك به وقد كبرت سنُّهُ وعضَّ على ناجذه[1]؟

عقلان.. ليسا كالعقول!

وقال عتبة بن عبدالرحمن بن الحارث:

ما رأيتُ عقول الناس إلا قريباً بعضُها من بعض، إلا ما كان من الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجحُ على عقول الناس كثيراً[2]!

مثال مسكت.. وجواب مقنع

وحدَّث المستنير بن أخضَر عن إياس بن مُعاوية بن قُرَّة، قال:

---

(١) المصدران الأخيران من الهامش السابق.

(٢) البيان والتبيين (١/١٠٠، ٢٧٥)، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام (٦/٢٣٩) (طبعة حيدر آباد، ٨٨ ـ ١٣٩٦هـ)، أخبار القضاة (١/٣٤٦).

جاءَهُ دِهقان فسأله عن السَّكَر[1]: أحرامٌ هو، أو حلال؟ قال: هُو حرام. قال: كيف يكون حَرَاماً؟ أخبِرني عن التَّمْرِ أَحَلالٌ هو أم حَرَامٌ؟ قال: حلالٌ، قال: فأَخبِرني عن الكَشُوث[2] أَحَلالٌ هو أم حَرَامٌ؟ قال: حَلالٌ. قال: فأَخبِرني عن الماء أَحَلالٌ هو أم حَرَامٌ؟ قال: حَلال.

قال: فما خالَفَ بينهُما؟ وإنما هو من التَّمرِ والكَشُوث والماء، أن يكون هذا حلالاً، وهذا حراماً؟

فقال إياس للدِّهْقان: لو أخذتُ كفاً من تُرابٍ فضربتُكَ به أكان يُوجعك؟ قال: لا. قال: لو أخذتُ كفاً من ماءٍ فضربتكَ به أكان يُوجعك؟ قال: لا. قال: لو أخذتُ كفاً من تِبْنٍ فضربتُكَ به أكانَ يُوجعك؟ قال: لا. قال: فإذا أخذتُ هذا الطين فعجنتهُ بالتِّبْنِ والماء ثم جعلته كُتَلاً، ثم تركته حتى يجفّ ثم ضربتك بِه، أيوجعك؟ قال: نعم، ويقتلُني. قال: فكذلك هذا التَّمر والماء والكَشُوث إذا جُمِعَ ثم عُتِّقَ حَرُمَ، كما جُفِّفَ هذا فأَوجَعَ وقَتَلَ، وكان لا يُوجِع[3]!!

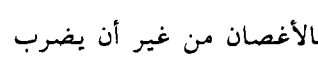

(١) السَّكر هو نبيذ الخمر.

(٢) الكشوث نبت يتعلق بالأغصان من غير أن يضرب بعرق في الأرض؛ يجعل في النبيذ.

(٣) نثر الدر (١٥٤/٥)، تهذيب الكمال (٤١٤/٣)، البداية والنهاية (١٢٢/١٣)، تاريخ دمشق (٢١/١٠، ٢٢)، أخبار القضاة (٣٤٩/١)، المجالسة (٢٥٣٥).

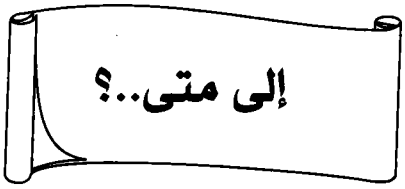

قال رجلٌ لإِياس بن مُعاويةَ: يا أبا وَاثِلة حتىٰ متىٰ يتوالد الناس ويموتون؟

فقال لجُلسائه: أجيبوه. فلم يكن عندهم جواب.

فقال إياس: حتى تتكامل العدَّتانِ: عدةُ أهل النَّار، وعدّةُ أهل الجنة[1].

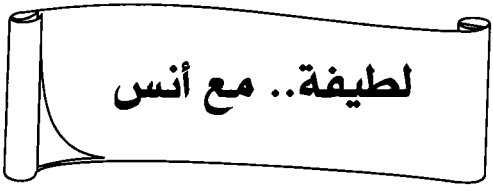

وتراءى هلالَ شهر رمضان جماعةٌ فيهم أنسُ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وقد قارب المائة. فقال أنس: قد رأيته، هو ذاك. وجعل يشير إليه فلا يرونه!

ونظر إياس إلى أنس، وإذا شعرةٌ من حاجبه قد انثنت، فمسحها إياسٌ وسوَّاها بحاجبه، ثم قال له: يا أبا حمزة أرِنا موضعَ الهلال، فجعل ينظر ويقول: ما أراه[2]!

---

(١) تهذيب الكمال (٤١٧/٣)، حلية الأولياء (١٢٣/٣)، المجالسة (٢٦٢٩)، تاريخ دمشق (١٧/١٠).

(٢) وفيات الأعيان (٢٥٠/١)، نثر الدر (١٥٣/٥).

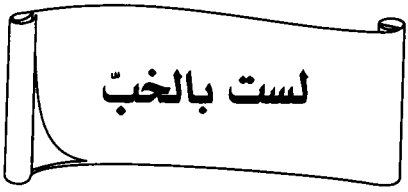

وقال حبيب بن الشهيد: سمعتُ إياساً يقول: لستُ بخبٍّ، والخَبُّ[1] لا يخدعني. ولا يُخْدَعُ محمد بن سيرين[2]، ويُخْدَعُ أبي، ويُخْدَعُ الحسنُ البصري، ويُخْدَعُ عمرُ بن عبدالعزيز[3]!

وأورده الإمام الغزالي بلفظ: لستُ بخبٍّ والخبُّ لا يغبنُني، ولا يغبنُ ابن سيرين، ولكن يغبن الحسن، ويغبنُ أبي. يعني معاوية بن قرة.

قال: والكمال في أن لا يَغبن ولا يُغبن[4].

قلت: وإذا خُدِعَ الطيِّبون؛ فلطيبِ أخلاقهم، وصفاء قلوبهم، ولينِ جانبهم.

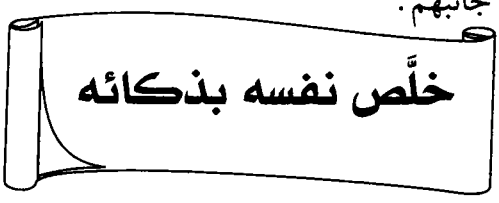

كان الحكم بن أيوب الثقفي والي الحجاج على البصرة

---

(١) الخَبُّ هو الرجلُ الخدّاع.

(٢) لعل السبب أنه امتهن التجارة وعرف أخلاق التجار.

(٣) تهذيب الكمال (٤١٨/٣)، عيون الأخبار (٢٢٥/١، ٢٨٠)، العقد الفريد (٢٩٢/٢)، تاريخ الإسلام ص(٤٢)، البيان والتبيين (١٠١/١)، الحيوان (٢٧٩/٢)، نثر الدر (١٥٣/٥)، تاريخ دمشق (١٩/١٠)، أخبار القضاة (٣٤٨/١).

(٤) إحياء علوم الدين (١٢١/٢).

وابن عمه، فاتَّهم إياساً في ظنّةِ الخوارج، فقال له الحكم: إنك خارجيٌّ منافق. وشتمه.

ثم قال: ائتني بمن يكفلُ بك.

قال: ما أجدُ أحداً أعرفَ بي منك!

قال: وما علمي بك وأنا من أهل الشام وأنت من أهل العراق؟

قال إياس: ففيمَ هذه الشهادةُ منذ اليوم؟!

فضحك الحكم وخلَّى سبيله[1]!

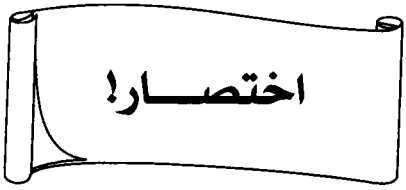

وقال الموصلي: مَرَّ إياس بقوم يَسْقون من بِئر طوله ثمانون، فأمرهم فقطعوا الرِّشاء[2] نصفين، فصيَّروا النصف الذي في الدَّلو في أربعين من البئر إلى الماء، وصيَّروا في النصف الأعلى بَكْرة وعلّقوا فيه النِّصف الأسفل الذي فيه الدلو في البكرة، فلما جَذبوا النصف الأعلى صارت الدَّلو عندهم بالماء،

---

(١) عيون الأخبار (٢٠٢/١)، التذكرة الحمدونية (٢٣٨/٨)، نثر الدر (١٥٥/٥).

(٢) الرِّشاء: حبل الدلو.

فصار الأسفل من أربعين ذراعاً[1].

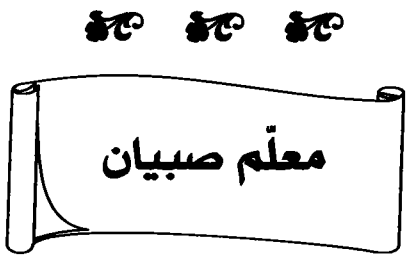

قال إبراهيم بن مَرْزُوق البَصْري: كُنّا عند إياس بنِ معاويةَ قبل أن يُسْتَقضىٰ، وكنّا نكتب عنه الفِرَاسةَ كما نكتب من صاحب الحديثِ الحديثَ، قال: إذ جاءَ رجلٌ فجلسَ على دُكّان مرتفع بالمِربَد[2]، فجعل يَتَرَصَّد الطَّريقَ، فبينما هو كذلك، إذ نزلَ فاستقبل رَجُلاً، فنظرَ في وجههِ، ثم رجع إلىٰ مَوْضعه.

فقال إياس: قولوا في هذا الرجل. قالوا: ما نقول؟ رجلٌ طالبُ حاجةٍ.

فقال: مُعَلِّمُ صبيان قد أَبَقَ[3] له غلام أعور، فإن أردتم أن تستفهموه ذلك، فقوموا إليه، فاسألوه.

فقامَ إليه بعضُنا، فقال له: إنا نراك منذ اليوم، أَلَكَ حاجة تستعين بنا على حاجتك؟ فقال: لي غلامٌ نسَّاج، كان يُغِلّ علينا، وقد زاغَ منذ أيام.

فقالوا: صف لنا غُلامَكَ، وصِف لنا موضعك.

---

(١) أخبار القضاة (٣٦٣/١).

(٢) الموضع المشهور بالبصرة.

(٣) أي هرب.

فقال: أما أنا فأُعلّم الصبيان بالكَلاَّءِ[1]، وأمّا غلامي فغلام من صفته كذا وكذا، إحدىٰ عينيه ذاهبة.

قال: فرجعنا إليه فقلنا له: كما قلت. ولكن كيف علمت أنه مُعَلّم صبيان؟

قال: رأيته جاء فجعلَ يطلب موضعاً يجلس فيه، فعلمت أنه يطلب عادَتَهُ في الجلوس، فنظر إلى أَرْفَع شيء يَقْدر عليه، فجلسَ عليه، فنظرت في قَدْرِهِ فإذا ليس قَدْرُهُ قَدْرَ الملوك، فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوسَ المُلوك فلم أجدهم إلا المُعَلّمين، فعلمتُ أنّه مَعَلّم صبيان.

فقلنا: كيف عَلِمت أنه أَبَقَ له غُلام أعور؟ قال: إني رأيته يَتَرَصَّد الطريقَ، فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلاً قد ذهبت إحدىٰ عينيه، فعلمت أنّه شَبَّهَهُ بغلامه[2].

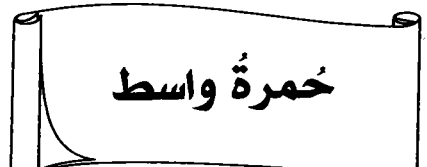

وورد الخبر عن راوٍ آخر بصيغة أخرى، إن لم تكن حادثة أخرى. فقد روى الحارث بن مرة أن إياساً نظر إلى رجلٍ فقال:

---

(١) الكلاّء: محلة مشهورة وسوق بالبصرة.

(٢) الطرق الحكمية ص(٤٦)، تهذيب الكمال (٤٢٦/٣)، البداية والنهاية (١٢٦/١٣)، الوافي بالوفيات (٤٦٧/٩)، تاريخ دمشق (٣٢/١٠)، أخبار القضاة (٣٢٨/١ ـ ٣٢٩).

هذا غريبٌ، وهو من أهل واسط، وهو مُعَلِّم، وهو يطلب عبداً له أَبَق، فوجدوا الأمرَ علىٰ ما قال.

فقيل له، فقال: رأيته يمشي ويلتفت، فعلمتُ أنه غريب، ورأيته على ثَوْبه حُمْرَةُ تُرْبة واسط، فعلمتُ أنه من أَهْلِها، ورأيته يمرّ بالصبيان فيُسَلِّم عليهم ولا يُسَلِّم على الرِّجال، فعلمت أنه مُعَلِّم، ورأيته إذا مَرَّ بذي هيأة لم يلتفت إليه وإذا مرّ بذي أَسمال تأمَّلَه، فعلمتُ أنه يطلب آبقاً[1].

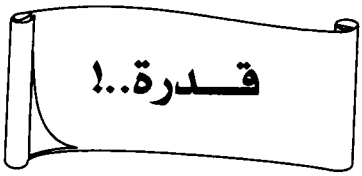

وعن صالح بن مسلم، عن إياس بن معاوية قال:

لو جلستُ على باب واسط، لم يمرَّ بي أحد إلا أخبرتكم بعمله وصناعته[2]!

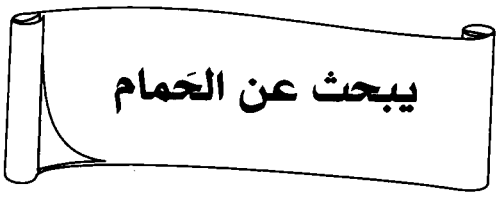

وحدَّث غير واحد أنه كان جالساً، فنظر إلىٰ رجل دخل

---

(١) تهذيب الكمال (٤٢٧/٣)، الطرق الحكمية ص(٤٧)، الوافي بالوفيات (٤٦٧/٩)، تاريخ دمشق (٣١/١٠).

(٢) تهذيب الكمال (٤٣٢/٣).

المَسْجدَ، مسجدَ واسط، فقال: هذا الرجل من أهل البَصْرة، من ثقِيف، قد أَرْسَل حَمَاماً له، فذهبَ ولم يَرْجع إليه.

فقامَ رجلٌ فسألَ ذلك الرَّجلَ، فأَخْبَرَ عن نفسِهِ بما قال إياس. فسألوا إياساً عن ذلك؟ فقال: أمّا معرفة البَصريين، فلا أُحْمَدُ عليه، وأمّا قولي: ثَقَفِيّ، فإنّ لثقيف هيأةً لا تَخْفَىٰ، وأمّا قولي: فَقَدَ حَمَاماً له، فإنّي رأيته يتصفَّح الحَمَام، لا يرىٰ ناهِضاً، ولا طائراً، ولا ساقِطاً، إلاّ نظر إليه، فقلت: إنّه قد فَقَدَ حَماماً لنفسه[1].

جماع الفراسة !

وقال الأصمعي: رأى إياس رجلاً فقال: تعالَ يا يمامِيُّ. فقال: لست بيمامِيٍّ، قال: فتعال يا أَضاخيّ، قال: لست بأضاخيّ، قال: فتعال يا ضَرَويّ، فجاء فسأله عن نفسه، فقال: وُلِدتُ باليمامة، ونشأت بأُضاخَة، ثم تحوّلت إلى ضَرِيَّة[2].

---

(١) أخبار القضاة (٣٦٩/١)، تهذيب الكمال (٤٣١/٣).

(٢) تهذيب الكمال (٤٣٠/٣)، أخبار القضاة (٣٧٤/١)، تاريخ الإسلام ص(٤٤).

وأضاخة كانت قرية عامرة من نجد، في طريق مكة من البصرة، وضرية كذلك قرية بين البصرة ومكة.

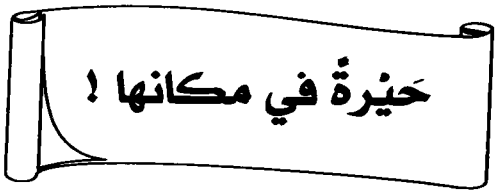

وتَقَدَّم إلى إياس بن مُعاوية رَجُلان، وَهو على القضاء، وكان مَعَهما غُلام؛ فقال له: إني أتأمل هذا الغُلام منذ قعَدتما؛ فأقول أحياناً: إنه من أهل الأهواز، وأحياناً أقول: من أهل اصطخر.

فقال: إنَّه ولد بهذه ونشأ بهذه[1]!!

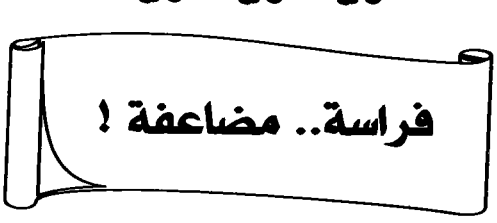

وقال عُمر بن شَبَّة: سمعتُ غيرَ واحدٍ من عُلمائنا، منهم خَلاّد بن يزيد، يذكرون أن إياساً أتىٰ المدينةَ، فصلَّى في مسجدِ النبيِّ ﷺ صلاة، ثم لبث في مَقْعَدِه، فنظرَ إليه أهل حلقة فَزَكَنُوه[2]، حتىٰ صاروا فرقتين، فرقة تزعم أنه مُعَلِّم، وفرقة تزعم أنه قاضٍ، فوجّهوا إليه رجلاً، فجلسَ إليه، فحادَثَهُ شيئاً، ثم أخبرهُ خبر القوم، وما صاروا إليه من الظَّنِّ به، فقال: قد

(١) أخبار القضاة (٣٦٤/١).

(٢) أي تفرَّسوا فيه وخمَّنوا.

أصاب الذين ذكروا أني قاضٍ، ورُوَيداً، أُخبرك عن القوم.

أمّا الذي صفته كذا فهو كذا، وأمّا الذي يليه فهو كذا، وأما الذي يليه فهو كذا، فلم يخطىء في أحد منهم، إلاّ في شيخٍ، فإنّه قال: وأمّا ذاك الشيخ، فإنّه نَجّار.

قال: فقال الرجل: في كلِّهم والله أصبْتَ، إلاّ في هذا الشيخ، فإنّه شيخ من قريش. فقال إياس: وإن كان من قُريش، فإنّه نَجّار.

فقامَ الرَّجل إلىٰ أصحابه. فقال: جئتكم والله من عند أعجبِ النَّاس، لا والله إنْ منكم من أحد إلاّ أخبرني عن صناعته وأصاب، إلاّ فيك يا أبا فلان، فإنّه زعم أنك نجّار فأخبرته أنك من قريش. فقال: وإن كان من قريش فإنه نجار!

قال: صدق والله، إني أعمل عِيدان جوارِيَّ[1]!

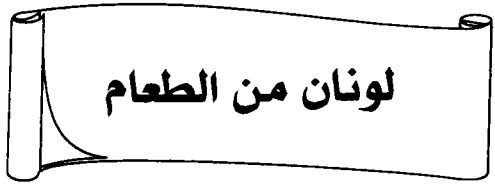

وروي أنّ إياساً قَدِم المدينة، فعمل عبدالرحمن بن القاسم بن محمد طعَاماً، ونَزَّهَهُم بالعَقِيق[2]، ودعا إياساً، وكان

(١) أخبار القضاة (٣٦٧/١)، تهذيب الكمال (٤٢٩/٣).

(٢) العقيق: موضع بالمدينة المنورة.

للماجِشون لونان يُعْمَلان في منزله، فيُجاد صنعتهما، فعُمِلا، وَوُجِّهَ بهما إلى العقيق، فقدِما في أضعاف طعام عبدالرحمن، والماجِشون لا يعلم، ولا عبدالرحمن بن القاسم، فقال إياس: ينبغي لهذين اللَّونين، أن لا يكونا عُمِلا ها هنا، وينبغي أن يكون عُمِلا في منزل الماجِشون، فقال عبدالرحمن: لا عِلْم لي، وقال الماجِشون: وأنا لا عِلْم لي. قال يوسف: فسألني أبي، فقلتُ: صَدَق، في منزلنا عُمِلا.

فقيل لإياس: ومن أين علمتَ ذاك؟

قال: جيء بهما علىٰ غير مقادير سائر الطعام، في حَرِّهِ وبَرْدِهِ، ورأيت الماجِشون نَظَرَ إلىٰ وجه ابنه حين وُضِعَ اللونان[1]!

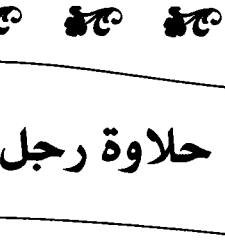

ونظر إياس يوماً إلى رَجُل متأبط شيئاً، فقال: معه سُكّر، وقد ولد له غلام.

فاتّبعه رجل، فسأله، فوجده كما قال.

قيل له: ومن أين علمت؟

قال: رأيتُ الذّباب قد أطاف به، فقلت معه سُكّر، ورأيته

(١) أخبار القضاة (٣٦٨/١)، تهذيب الكمال (٤٣٠/٣).

نشيطاً مَرحاً، فقلت ولد له غلام[1]!!

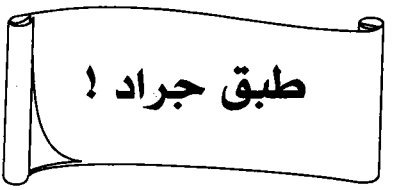

ورأى جَارية في المَسجد على يَدَيها طَبق مُغَطى بمنديل؛ فقال: في طبقها جَراد، فكان كما قيل؛ فسئل فقال: رأيته خفيفاً على يَدَيها[2].

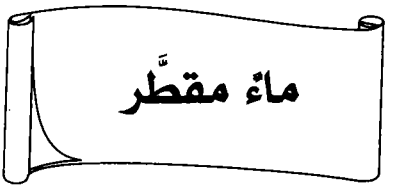

وقال إياس يوماً في زُقاق «مُحارب» لغُلامه: اطلب لنا ماء من دار محارب.

فجاءه بماء في كوز فتوضأ، وقال: هذا الماء قاطر، فسألهم؛ فقالوا له: نعم كان تحت الحُبِّ[3].

قالوا: كيف علمت؟

---

(١) أخبار القضاة (١/٣٦٥).

(٢) المصدر السابق (١/٣٦٥).

(٣) الحُبُّ هو الجرَّة.

قال: بصفائه[1].

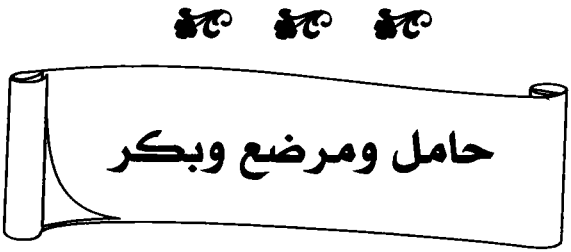

ونَظَرَ إلىٰ ثلاثِ نسوة فَزِعْنَ من شيءٍ، فقال: هذه حاملٌ، وهذه مُرْضِعٌ، وهذه بِكْر.

فقامَ إليهن رجلٌ فسألهُنَّ فوجدهنَّ كما قال.

فقيل له: من أين علمت؟

قال: لَمّا فَزِعْنَ وضَعَت كلُّ واحدةٍ يَدَها على أَهَمِّ المواضع لها؛ وضعت المُرضعُ يَدَها على ثَدْيها، والحامل علىٰ بَطْنها، والبِكْر علىٰ أسفل من ذلك[2]!

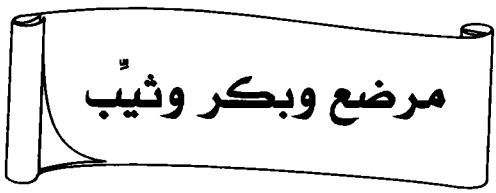

روى أحمد بن عبدالله العجلي أنه دخل على إياس ثلاث

---

(١) المصدر السابق (٣٦٦/١).

(٢) حدائق الأزاهر ص(٢٠٥)، وفيات الأعيان (٢٤٨/١)، الوافي بالوفيات (٤٦٦/٩)، تهذيب الكمال (٤٢٩/٣)، أخبار القضاة (٣٧١/١).

نسوة، فقال: أما واحدةٌ فمرضع، والأخرى بِكْر، والأخرى ثيِّب!

فقيل له: ممَّ علمت؟

قال: أما المُرضع فلما قعدتْ أمسكتْ ثديها بيديها.

وأما البكر فلما دخلتْ لم تلتفتْ إلى أحد.

وأما الثيِّب فلمّا دخلت نظرت ورمتْ بعينيها[1]!

وأورده ابن القيم بلفظ آخر، قال:

تقدَّم إلى إياس بن معاوية أربع نسوة، فقال إياس: أما إحداهن فحامل، والأخرى مرضع، والأخرى ثيب، والأخرى بكر.

فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال!

قالوا: وكيف عرفت؟

فقال: أما الحامل فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها، فعرفت أنها حامل.

وأما المرضع فكانت تضرب ثدييها، فعرفت أنها مرضع.

وأما الثيِّب فكانت تكلمني وعينها في عيني، فعرفت أنها ثيب.

---

(١) تهذيب الكمال (٤١٠/٣)، الأذكياء ص(٨٠)، البداية والنهاية (١١٨/١٣)، تاريخ دمشق (١٣/١٠).

وأما البكر فكانت تكلمني وعينها في الأرض، فعرفت أنها بكر[1]!

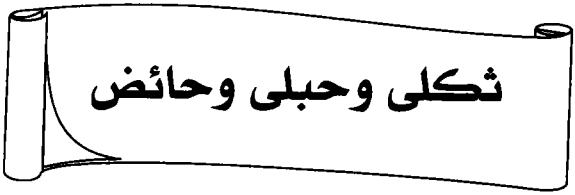

وخبر آخر، عندما كان جالساً يوماً في المسجد، فدخل من بابه ثلاث نسوة، فقال: الأولى ثكلى، والثانية حبلى، والثالثة حائض!

فسأل عنهنَّ، فكُنَّ كما قال.

فقال: رأيتُ الأولى تنظرُ إلى الأحداث (الأولاد) وتردُّ طَرْفاً كليلاً، فعلمتُ أنها ثكلى.

ورأيتُ الثانية تمشي وتعتمدُ على وركها الأيسر، فعلمتُ أنها حبلى.

ورأيتُ الثالثة تريدُ الدخول وهي تتهيَّب، فعلمتُ أنها حائض[2].

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص(٣٨).
(٢) تاريخ دمشق (٣٢/١٠)، تهذيب الكمال (٤٢٨/٣).

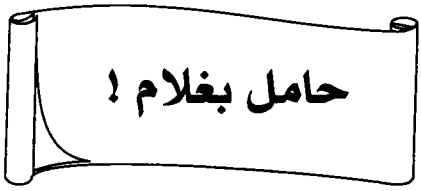

ومرَّ ببيتٍ فسمع قراءةً من عِلِّية، فقال: هذه قراءة امرأةٍ حاملٍ بغلام!

فسئل: كيف عرفت ذلك؟

قال: سمعتُ بصوتها ونَفَسِها مخالطةً فعلمتُ أنها حامل، وسمعتُ صَحَلاً[1] فعلمتُ أن الحملَ غلام.

ومرَّ بعد ذلك بكتّاب فيه صبيان، فنظر إلى صبيٍّ منهم فقال: هذا ابنُ تلك المرأة!

فكان كما قال[2]!

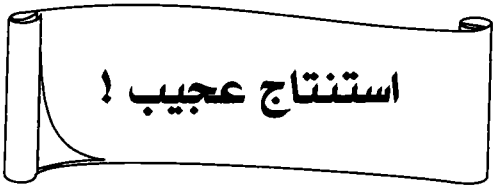

وفي استنتاج عجيب روى حماد بن زيد أن مكاناً جمع بين

---

(١) الصَّحَل: من كان في صوته بُحَّة. وورد في مصدر «سمعت صوتاً مجلجلاً صافياً».

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص(٤٧)، البداية والنهاية (١٢٥/١٣)، تاريخ دمشق (٣١/١٠ ـ ٣٢)، تهذيب الكمال (٤٢٨/٣)، أخبار القضاة (٣٦٢/١).

الصلت بن دينار وإياس بن معاوية، فجعل إياس يتحدَّث، وجعل الصلتُ يتقدَّرُ له[1] إذا فرغ يحدِّث.

فضرب إياس فخذهُ بيده وقال: اسكت.

فقال له الصلت: أبلعني ريقي، دعني أتنفَّس.

فقال إياس: أترونَ هذا؟ فإن امرأةَ هذا سيئةُ الخُلق!

فاعترف الصلت وقال: صدقتَ والله إنها سيئة الخُلق، من أين علمت؟

فقال: من عندها، قد ساء خُلُقها عليك، فهذا من ذاك[2]!!

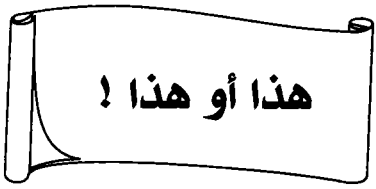

وتَقَدّم إليه نَفَرٌ ليشهدوا؛ فقال لبعضهم: تَقدم يا سمّاك؛ فقال: لستُ بسَماك أصلحك الله. قال: فما أنت؟ قال: أنا أبّاب[3] أبيع الماء في السّماكين[4].

---

(١) أي يحكم به عليه.

(٢) تاريخ دمشق (٣١/١٠).

(٣) الأبّاب: بائع الماء.

(٤) أخبار القضاة (٣٦٦/١).

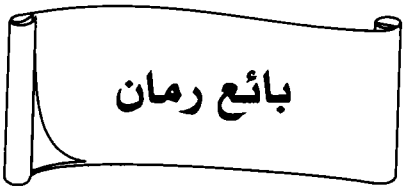

ورأى رجلاً فقال: هذا يبيع الرمّان!

فقيل: من أين علمت؟

قال: رأيت ظفر إبهامه أطول من سائره، ورأسها أخضر، فعلمتُ أنه يمتحنُ بها الرمان[1]!

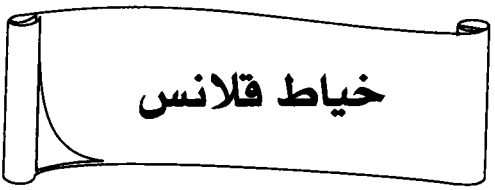

ونظر إلى رجل في المسجد الجامع فقال: ينبغي أن يكون خَيّاطاً، وهو يخيط القلانس[2]!

فكان كما قال، فقيل له: كيف عرفت؟ قال: رأيته يُحرّك رأسه كما يَفْعل الخَيّاط، ورأيته ينظر إلى رؤوس الرجال[3]!

---

(١) المصدر السابق (٣٦١/١).

(٢) القلانس جمع قَلَنْسُوَة، وهي لباسٌ للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

(٣) المصدر السابق (٣٦٦/١).

صاحب لحية

وتفرَّس في أحد الشهود بمجلس القضاء فقال له: خلَّقْتَ[1] نصفَ لحيتك؟

قال: نعم، أصابني داء فخلَّقتُها له!

فقال: عرفتُ ذاك باختلاف الشعرتين[2].

هذا لصٌّ!

قال: واستقبل إياس رجلاً بواسط فقال: خُذوه فإنه لِصٌّ سرق، الساعةَ يأتيكم من يطلبه.

فأُخذ، فلم يجاوز حتى جاء قومٌ يطلبونه، فأخذوه.

فسئل عن ذاك، فقال: رأيته يَنْظر مُدَلَّهاً[3]!

---

(١) خلَّقَه: ملَّسه وسوّاه، أو طيَّبه بالخَلوق، وهو ضرب من الطيب، أعظم أجزائه الزعفران.

(٢) المصدر السابق (٣٦١/١).

(٣) المصدر السابق (٣٦٦/١).
والمُدَلَّهُ: المتحيِّر المندهش.

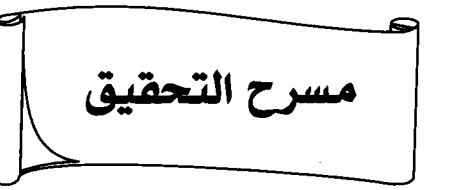

وطلب خالد بن عبدالله القسري أموال عمر بن هبيرة [الذي كان والياً على الكوفة قبله]، وقيل له: إن له ودائع عند قوم، فلم يجدوا له شيئاً، ولا أحداً يدلهم على ودائعه، فأخذوا مولاة له، فسألوها فلم يكن عندها عِلم، ورأوا زنْفيلَجة[1] في بيتها، فأخذوها فوجدوا فيها شِراكاً، فيه آثار كتاب، فدعا إياس بقَصب، فجعل يَدْرج الشراك عليها حتى أدرجه على القَصَب، فنبش الكتاب، فإذا فيه ذكر أموال ابن هُبيرة، ووديعته، عند أقوام سماهم فأخذوها[2]!

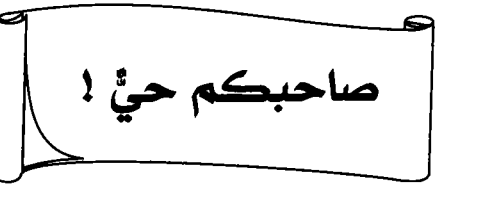

ونظر إلى جنازة رجل فقال: صاحبكم حيٌّ!

فوضعوا الجنازة، فعُضَّ الرجلُ، فإذا هو حيٌّ!!

فردُّوه. فسُئل عن ذلك فقال: رأيتُ أصابعَ قدَميه منتصبة، والميتُ لا تنتصبُ أصابعُ قدميه[3]!

---

(١) الزنفيلجة: وعاء أدوات الراعي.

(٢) المصدر السابق (٣٦٢/١).

(٣) المصدر السابق (٣٦٥/١ ـ ٣٦٦).

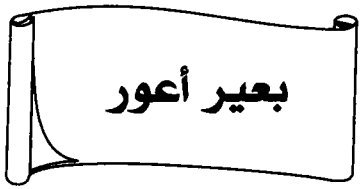

ويحكى أنه رأى أثر اعتلاف بعيرٍ فقال: هذا بعيرٌ أعور!

فقيل له في ذلك فقال: وجدتُ اعتلافَهُ من جهة واحدة.

وكان كما قال[1].

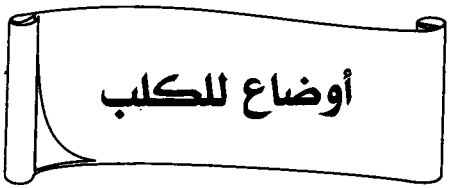

● وحجَّ إياس، فسمع نباح كلب فقال: هذا كلبٌ مشدود.

ثم سمع نباحَهُ فقال: قد أُرسل.

فانتهوا إلى الماء، فسألوهم، فكان كما قال!

فقيل له: من أين علمت؟

قال: كان نباحهُ وهو موثَّقٌ يُسمع من مكان واحد، ثم سمعتُه يقربُ مرةً ويبعدُ أخرى[2].

---

(١) معجم الأمثال العربية (٣٦٨/١)، أخبار القضاة (٣٦١/١).

(٢) الأذكياء لابن الجوزي ص(٨١)، الحيوان (٧٥/٢).

● ومرَّ ليلةً بماءٍ فقال: أسمعُ صوت كلبٍ غريب!

فقيل له: كيف عرفتهُ؟

قال: بخضوع صوته وشدَّةِ نباح غيره من الكلاب.

فسألوا، فإذا كلبٌ غريبٌ والكلابُ تنبحه[1]!

● وكان يوماً في برِّية، فأعوزهم الماء، فسمع نُباح كلب، فقال: هذا على رأس بئر!

فاسْتَقْرَوا النُّباحَ فوجدوه كما قال!

فقيل له في ذلك فقال: سمعتُ عند نباحه دوياً، ثم سمعتُ بعده صوتاً يجيبه، فعلمتُ أنه عند بئر[2].

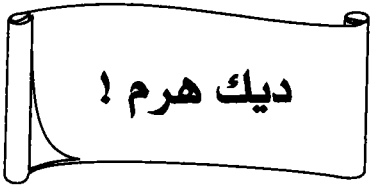

ومرَّ بديكٍ ينقُر حبّاً ولا يفرِّقُهُ، فقال: يَنْبَغِي أن يكون هذا هرِماً؛ فإنَّ الهرِم إذا أُلقي له الحبُّ لم يفرِّقْهُ ليجتمع الدَّجَاجُ حولَهُ. والهرِم قد فنيتْ رغبتهُ فيهنَّ، فليس همُّه إلاّ نفسَهُ.

---

(١) الأذكياء ص(٨١)، وفيات الأعيان (٢٤٨/١)، الوافي بالوفيات (٤٦٦/٩)، بهجة المجالس (٤٢٣/١)، الحيوان (٧٦/٢).

(٢) وفيات الأعيان (٢٤٩/١)، الوافي بالوفيات (٤٦٦/٩ ـ ٤٦٧)، حدائق الأزاهر ص(٢٠٥).

ورووا عنهُ أنّهُ قال: اللافظة الديك الشابُّ، وإنَّهُ يأخذ الحبَّة يؤْثر بها الدَّجَاجَ، والهرِمُ لا يفعل ذلك، وإنَّما هو لافظةٌ ما دام شاباً[1]!

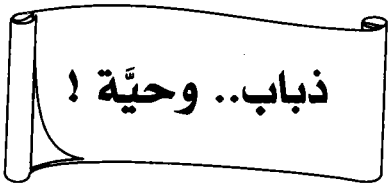

ومن نوادر زكنه أنه رأى قوماً يأكلون تمراً ويلقون النوى متفرِّقاً، فرأى الذباب يجتمعن في موضع من التمر ولا يقربنَ موضعاً آخر، فقال إياس: إن في هذا الموضع حيَّة!

فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال!

فقيل له: من أين علمت؟

قال: رأيت الذباب لا يقربْنَ هذا الموضع، فقلت: يجدْنَ ريح سُمٍّ، فقلت: حيَّة[2]!

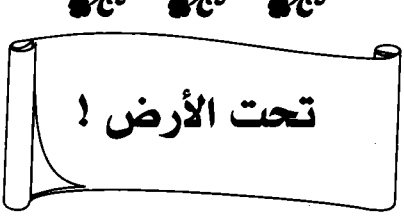

ونظر يوماً إلى آجُرَّة بالرحبة وهو بمدينة واسط، فقال: تحت هذه الآجُرَّةِ دابَّة!

---

(١) الحيوان (١٥٢/٢)، أخبار القضاة (٣٦٥/١).

(٢) قضاء العرب، ص(١٣٣).

فنزعوا الآجُرَّة، فإذا تحتها حيَّةٌ منطوية!

فسألوه عن ذلك فقال: إني رأيتُ ما بين الآجُرَّتين نديّاً من بين جميع تلك الرحبة، فعلمتُ أن تحتها شيئاً يتنفَّس[1]!

- ولعلَّ تفصيلَ القصة في الخبر التالي:

كان خالد بن عبدالله يَسْتثقل إياس بن مُعاوية، ويَمْقت إزكانه، فلما بنى قَصره الذي أسفل واسط على دجلة؛ خرج إليه ومعه النَّاس، وقد فرغ منه وفَرش صَحنه بالآجُر، فرأى في الفَرشِ آجُرَّة ناتئة عن الفرش، وعليها شبه الدَّسم؛ فقال: لو كان إياس حاضراً لقال في هذه الآجُرَّة. قالوا: فإنَّه حاضر. قال: فعَليَّ به.

فجاء فقال له: ما بال هذه الآجُرَّة هكذا؟ قال: يَنْبغِي أن يكون تحتها حية؛ قال: وكيف؟ قال: لأنه لم يكن يعمل لك مثل هذه، وهذا حادث فيها، وليس في الهَوَام ما يكون تحتها فيرفعها أقوى من الحية، وهذا الدَّسمُ نَفْخُها.

فدعا خالد بفأس وأعجلهم به، ورجا أن لا يكون كما قال. فقلعها؛ فإذا تحتها حية مطوَّقة[2].

● ونظر يوماً إلى صَدْعٍ في الأرض فقال: في هذا الصدعِ دابَّة!

---

(١) وفيات الأعيان (٢٤٨/١)، الوافي بالوفيات (٤٦٦/٩)، بهجة المجالس (٤٢٢/١).

(٢) أخبار القضاة (٣٦٤/١).

فنظروا، فإذا فيه دابَّة!

فسألوه عنه فقال: إن الأرض لا تنصدعُ إلا عن دابَّةٍ أو نبات.

قال الجاحظ: وإذا نظر الأعرابيُّ إلى موضع الانتفاخ يتصدَّعُ في مكانه، فكان تفتُّحهُ في الحالات مستوياً، علم أنه كمأة، وإن خلط في الحركة والتصدُّع، علم أنه دابَّة فاتَّقىٰ مكانها[1]!

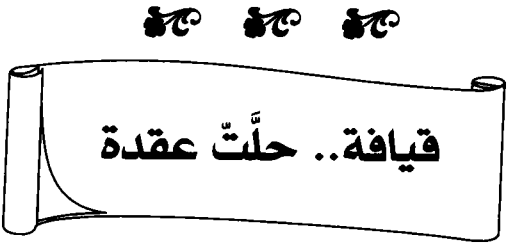

وقال عُمر بن شَبَّة النُّمَيريُّ، عن خَلاّد بن يزيد الأَرْقَط: كان لإِياس صديقٌ قد وطىءَ أَمَةً له تخرجُ في حوائجه، فولدت غُلاماً، فشكّ فيه الرَّجل، فلم يَدَّعيه، ولم ينكره. وكانَ علىٰ باب الرَّجل كُتَّابٌ، وكانَ الغلام يختلف إلى ذلك الكُتَّاب، فجاءَ إياس يريد صديقَهُ ذلك، فتصفَّح وجوهَ الغِلْمان، ثم أقبلَ على ذلك الغُلام. فقال: يا ابن فلان، قُم إلىٰ أبيك فأعلمه أنّي بالباب.

فقال مُعَلِّم الكُتَّاب لإِياس: ومن أينَ عَلِمت يا أبا واثلة أنه

---

(١) الحيوان (٤٨٢/٥)، وفيات الأعيان (٢٤٨/١ ـ ٢٤٩)، وخلط ابن الجوزي بين الحكايتين في كتاب الأذكياء ص(٨١).

ابنه؟ فقال: شبهُهُ فيه أَبْيَن من ذاك. فقامَ المُعَلِّمُ إلى الرَّجُلِ، فأخبَرهُ خَبَرَ إياس والغُلام، فخرجَ الرَّجلُ بنفسِهِ فَرِحاً بما أخبره المُعَلِّمُ، فقال: يا أبا واثلة، أحقٌّ ما قالَ المُعَلِّم لي؟ فقال: نعم شبَهُهُ فيك وشبَهُكَ فيه أَبْيَن من ذاك. فادَّعىٰ الرَّجلُ الغلامَ ونَسَبَهُ إلى نفسِهِ[1].

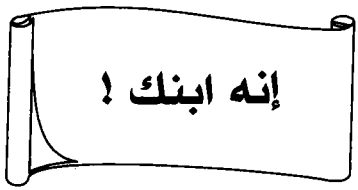

وعن بَعض الكوفيين؛ قال: شكا رَجُلٌ إلى قوم فقال: إني كنت ببلد بَعيد، فتركْت به حَمْلاً، فوُلد لي غُلام، وصار رجلاً، وبَلغني أنه قد قدم وليس يَعْرفني ولا أعرفه، فلست أدري كيف أطلبه.

فقالوا له: إن كان لك عند أحد فَرج فعِند إياس بن معاوية.

فأتاه، فأخبره قِصته؛ فقال له: الزمنا هاهنا. فلزمه أياماً، فقعد في حَلْقته في المسجد الجامع بالبَصرة، فلما كان ذات يوم التفت إياس فقال: الرَّجل ههنا؟ قيل: نعم. قال: قم إلى هذا الذي دخل من باب المَسجد، فإنه ابْنك.

فقام، فالتقيا في بعض المَسْجد، فتواقفا يتساءلان، ثم اعتنقا، وأقبلا إلى الحلقة فجلسا؛ فقال إياس: هو ابنك؟ فقال: نعم.

---

(١) تهذيب الكمال (٤٢٨/٣)، أخبار القضاة (٣٦٩/١).

فقال القوم: يا أبا واثلة: إنا لنتأمله فلا نرى فيه شبهه؛ قال: أجل ما أبعد شبهه، قالوا: فكيف علمت أنه ابنه؟ قال: هو أشبه الناس به طلعة، حين طَلع ظننته هو حتى رأيته في الحَلقة، فعلمت أنه شبهه بطلعته[1]!

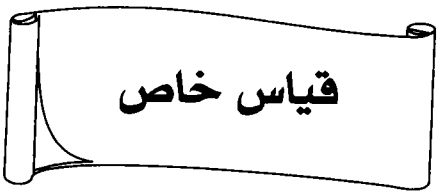

قال مسلم بن قتيبة: لقيني إياس بن معاوية وأنا لا أعرفه ولا يعرفني، فقال: أنت ابن قتيبة؟ قلت: نعم. قال: عرفتك بشبهِ عمِّك عمرو بن مسلم!

قلت: وأين أنا من عمي وعمي ضخم أمعر[2] وأنا آدمُ نحيفُ الجسم؟

فقال: ليس القياسُ على هذا[3]!

(١) أخبار القضاة (٣٦٧/١).

(٢) الأمعر: الذي علته صفرة.

(٣) نثر الدر (٢٥٥/٧).

الفصل الخامس

في مجلس القضاء

فطنته أوقعته في القضاء !

أرسل عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى عديّ بن أرطاة ـ والي البصرة ـ يأمره أن يجمع بين إياس وبين القاسم بن ربيعة الجوشني[1] من بني عبدالله بن غَطَفان، ويُولّي القضاء أنفذهما، فقدم فجمع بينهما. فقال إياس لعدي: سَلْ عنّي وعن القاسم الحَسنَ وابنَ سِيرين. ولم يكن إياس يأتيهما، فعَلِمَ القاسم أنّه إن سألهما أشارا به، فقال لعدي: لا تسأل عنه، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو، إنّ إياساً لأفضلُ منّي، وأفقه وأعلم بالقضاء، فإن كنتُ ممن يَصْدُقُ ينبغي لك أن تصدِّقَ قولي، وإن كنتُ كاذباً فما يحلّ أن تولّيني وأنا كَذّاب.

فقال إياس لعدي: إنّك جئت برجلٍ فأقمتَهُ علىٰ جَهنّم فافتدىٰ نفسه من النّار، أنْ تقذفه فيها يمين حلفها، كَذَب فيها، يستغفر الله منها، وينجو ممّا يخاف، فقال عدي: أما إذْ فطنت لهذا، فإنّي أولّيك.

فاستقضاه، فلم يزل على القضاء سنة، ثم هرب. وكان

---

(١) وهو ثقة عارف بالنسب. روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال (٣٤٧/٢٣).

يفصل بين الناس، إذا تبين له الأمر حَكَم به.

وقال جرير بن عبدالحميد عن مُغيرة: وَلَّى عَدِيُّ بنُ أَرْطاة إياس بن معاوية قَضاء البصرة، فأبىٰ. وقال: بكْر بنُ عبدالله خَيْرٌ منّي. فقال له: إنَّهُ قالَ أنَّكَ خيرٌ منهُ. قالَ: لو لم تَعْتَبِر فَضْله عليَّ إلاّ مِن تَفْضِيلِه إيايَ عليه، كانَ ينبغي. فلم يقعد بكر، وقعد إياس[1].

وفي مصدر آخر أنه قيل له: يا أبا وائلة، اختر لنا قاضياً نولّه القضاء.

فقال: ما أتقلَّدُ ذلك.

فقيل له: لو وجدتَ رجلاً ترضاهُ أكنت تشيرُ علينا به؟

فقال: نعم.

فقيل له: أترى له أن يلي القضاء؟

فقال: نعم.

فقيل له: إنك خيارُ رِضا. فَولِيَ القضاء وهو كاره[2].

ثم خرج إياس من عند الأمير ومعه حَرَسيٌّ، فأتى

---

(١) البداية والنهاية (١٢٢/١٣)، تاريخ خليفة بن خياط ص(٣٢٤)، الوافي بالوفيات (٤٦٥/٩)، تاريخ دمشق (٢٣/١٠)، وفيات الأعيان (٢٤٩/١)، تهذيب الكمال (٤١٨/٣ ـ ٤١٩)، (٣٤٨/٢٣)، المستجاد من فعلات الأجواد ص(١٨٢ ـ ١٨٣)، أخبار القضاة (٣١٢/١)، البيان والتبيين (١٠٠/١)، العقد الفريد (١٤/١)، صبح الأعشى (٣٠٩/١).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٢٥/١٠)، أخبار القضاة (٣١٧/١).

المسجد، فصلى ركعتين، ثم قال للحرسي: قدِّم الناس!

فاجتمع الناس للخصومات، فما قام حتى قضى سبعين قضية!

وكان يُشبَّه بشريح القاضي[1].

وكان راتبه مائة درهم كل شهر[2].

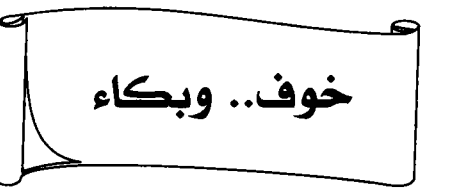

لما تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء، حتى قال أيوب السختياني: لقد رَمَوْها بحجَرها.

وقال حُميد الطَّويل: لما ولي إياس بن معاوية القضاء، دخلَ عليه الحَسَن، وإياس يبكي. فقال له: ما يبكيك؟ فذكر إياس الحديث: «**القضاةُ ثلاثةٌ، اثنان في النَّار، وواحدٌ في الجنة**»[3].

فقال الحَسَن: إن فيما قَصَّ الله عليك من نبأ داود

---

(١) تاريخ دمشق (١٠/٢٤ ـ ٢٧)، تهذيب الكمال (٣/٤١٩)، البداية والنهاية (١٣/١٢٣)، أخبار القضاة (١/٣١٣).

(٢) تهذيب الكمال (٣/٤٠٩).

(٣) رواه الطبراني عن ابن عمر رفعه، وصححه في صحيح الجامع (٤٤٤٧).

وسُلَيمان، ما يردّ قول هؤلاء الناس، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ ...﴾ إلى قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[1] فحُمِدَ سليمانُ ولم يُذَمَّ داود[2]!

في السوق.. وفي الطريق

وكان يقضي في سوق البصرة، هي مثل مسجد الجامع، من سبق إلى مكان فهو أحقُّ به ما جلس عليه، فإذا قام آخرُ فجلس عليه فهو أحقُّ به[3].

وكان يقضي حتى وهو في الطريق[4].

لم تعجِّل بالقضاء ؟

قيل له: لم تعجِّلُ بالقضاء؟

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) البداية والنهاية (١٢٣/١٣)، أخبار القضاة (٣١٣/١)، تاريخ دمشق (٢٥/١٠ ـ ٢٧)، تهذيب الكمال (٤٢٠/٣)، حلية الأولياء (١٢٣/٣)، تاريخ الإسلام ص(٤٣)، الطبقات الكبرى (٢٣٤/٧)، تاريخ دمشق (٢٥/١٠ ـ ٢٦)، تاريخ خليفة بن خياط ص(٣٢٤).

(٣) أخبار القضاة (٣٣٩/١).

(٤) المصدر السابق (٣٣٣/١، ٣٤١).

قال: كم لكفِّك من إصبع؟

قال: خمسٌ.

قال: عجلتَ!

قال: لم يعجل مَنْ قال بعدما قتلَ الشيءَ علماً ويقيناً!

قال إياس: فهذا جوابي لك[1]!

ميزة القاضي إياس

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

الذي اختصَّ به إياس وشريح مع مشاركتهما لأهل عصرهما في العلم: هو الفهم في الواقع، والاستدلال بالأمارات وشواهد الحال، وهذا الذي فات كثيراً من الحكّام، فأضاعوا كثيراً من الحقوق[2].

مقدِّمات في القضاء

- ويقول في وقائع قضائية: إنه لتأتيني القضيةُ لها وجهان،

---

(١) البيان والتبيين (١/١٠٠)، تاريخ دمشق (١٠/٢٥)، المجالسة (١٨٤٧).

(٢) الطرق الحكمية ص(٤٩).

فأيّهما أخذتُ عرفتُ أني قد أصبتُ الحقَّ[1].

ـ وقال: أنا أكلِّمُ الناسَ بنصفِ عقلي، فإذا اختصمَ إليَّ الاثنان جمعتُ عقلي كلَّه[2]!

ـ وقال له رجل: علِّمني القضاء!

فقال: إن القضاءَ لا يُتَعَلَّم، إنما القضاءُ فَهْم، إن القضاءَ فَهْم، ولكن لو قلت: علِّمني من العلم[3].

وذكر قاضي الكوفة وفقيهها عبدالله بن شُبْرُمة أن إياس بن معاوية نصحه بقوله: إياك وما يستبشع[4] الناسُ من الكلام، وعليك بما يعرف الناس من القضاء[5]!

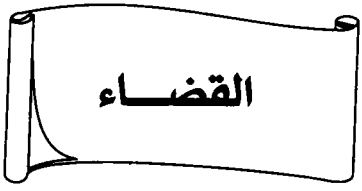

ومن أقواله في نهج القضاء:

---

(١) أخبار القضاة (٣٤٢/١)، تهذيب الكمال (٤٣٤/٣).

(٢) تهذيب الكمال (٤٣٥/٣)، حلية الأولياء (١٢٤/٣)، تاريخ دمشق (٢٧/١٠)، البداية والنهاية (١٢٣/١٣)، أخبار القضاة (٣٤٥/١). وفي المصدر الأخير «إذا اختصم إليَّ الأسادرة». وهم قوم من العجم.

(٣) تاريخ الإسلام ص(٤٤)، تهذيب الكمال (٤٣٥/٣)، الطرق الحكمية ص(٤٨)، تاريخ دمشق (٣٠/١٠).

(٤) وفي مصدر آخر «يستشنع»، وفي آخر «يستتبع»...

(٥) تاريخ دمشق (١٥/١٠)، أخبار القضاة (٥٠/٣)، (٣٥٩/١، ٢٦٣)، تهذيب الكمال (٤١١/٣).

ما وجدتُ القضاءَ إلا ما يَسْتَحْسِنُ الناس.

وقال: قيسوا القضاء ما صلح الناس، فإذا فسدوا فاستحسنوا[1].

ومن أقواله في القضاء:

- إذا وافقتْ وصيةُ الصبيِّ والمجنونِ الحقَّ أجزنا وصيته[2].

- الولاء لا يُباع، ولا يُوهب، ولا يُورث[3].

- إذا شارك المسلمُ النصرانيَّ أو اليهوديَّ وكانت الدراهمُ مع المسلم هو الذي يتصرَّفُ بها بالشراء والبيع: فلا بأس، ولا يدفعها إلى اليهودي أو النصراني يعملان بها؛ لأنهما يُرْبيان[4]!

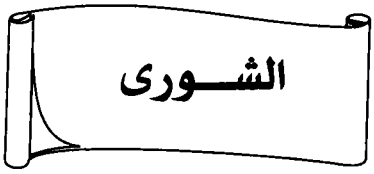

وكان مع عقله وذكائه وفراسته يستشير إذا أشكل عليه، فيرسل من يستفهم من التابعي الجليل محمد بن سيرين رحمه الله كما مرّ، وفي قضية أخرى - يبدو أنها أشكلت عليه ولم يجد لها حلاً - أرسل بها إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، قال:

---

(١) أخبار القضاة (٣٤١/١).
(٢) أخبار القضاة (٣٣٤/١).
(٣) المصدر السابق (٣٣٥/١).
(٤) المصدر السابق (٣٤٠/١).

كنت قاضياً لأهل البصرة في زمن عمر بن عبدالعزيز، فأُتيتُ بجارية كان على صدرها صبيٌّ في عنقه طوق، فجاء إنسان فأخذ الطوق من عنق الصبي، ثم جذبَهُ إليه، فصاحت الجارية فأُخذ (يعني الطوق).

قال: فكتبتُ فيه إلى عمر، فكتبَ إليَّ عمر: إن هذه عاريةُ ظهر، فعاقبْهُ بقدر ذنبه ثم خلِّ سبيله[1].

قلت: وهذا لا يعني أنه كان على خطٍّ الصواب دائماً، وأن اجتهادَهُ دائماً كان صحيحاً، فلا يخطىء في قضية.

بل وُجد من خالفَهُ من الفقهاء والقضاة، فكان رأيه مرجوحاً.

من ذلك أنه أجاز شهادة رجل وامرأتين في طلاق، قال قتادة: فسألت الحسن فقال: لا تجوز شهادة النساء في الطلاق.

وقال: وكتب عدي بن أرطاة ـ والي البصرة حينئذ ـ إلى عمر بن عبدالعزيز بقول الحسن وبقضاء إياس، فكتب عمر إلى عدي: أصاب الحسن وأخطأ إياس[2].

---

(١) المصدر السابق (٣٢٦/١).

(٢) المصدر السابق (٣٣٠/١). وانظر قضية أخرى في (٣٣٧/١).

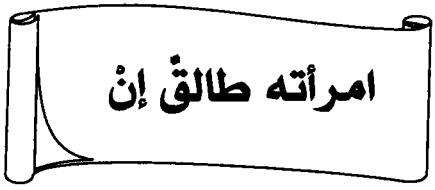

ولإياس آراء وأقضية ذكرها العلماء والمؤرخون، ولعل أكثر من اهتَّم بها وكيع في «أخبار القضاة»، وهذه نوادر مقتضبة منها، سهلة الفهم، بعضها تبيِّن اجتهاداته، وأخرى تُظهرُ قوة ذكائه ووميض فراسته.

روى عبدالواحد بن صبرة أن القاسم، وسالماً، وإياساً كانوا قعوداً، إذ جاءهم رجل فسألهم عن رجل قال: امرأتهُ طالقٌ إنْ. وسكتَ عند «إنْ».

فقالا لإياس: قل يا أبا واثلة (أي حكم هذا الطلاق).

فقال: هذا رجل أراد أن يحلف فلم يحلف!

لكن زُفر صاحب أبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ قال: أخطأ إياس، هذا رجل حلف بطلاق، فأراد أن يستثني فلم يستثنِ[1]!

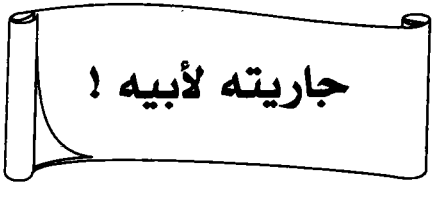

ويأخذ والده «معاوية بن قُرَّة» جاريةً لابنه إياس، فيقول لأبيه: تأخذ جاريتي؟

---

(١) المصدر السابق (٣٢٣/١).

فحكَّما الحسن البصري، فقال الحسن للوالد: خذها، أنت ومالك لأبيك.

فقال إياس للحسن: أنت شيخ قد خَرِفت. يأخذُ جاريتي[1]؟!

قلت: لعل مستند الإمام الحسن البصري الحديث الصحيح[2]: «**إن أطيب ما أكل الرجلُ من كسبه، وإن ولدَهُ من كسبه**» الذي عنون الإمام الترمذي لبابه بقوله: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده. وقال بعد أن أورد الحديث:

والعملُ على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم.

قالوا: إن يد الوالد مبسوطة في مال ولده يأخذ ما شاء. وقال بعضهم: لا يأخذ من ماله إلا عند الحاجة إليه[3].

وعندما بلغه اعتراضُ الحسن ـ رحمه الله ـ على قضية قضى فيها قال: إذا جاء الحسنُ فقل له يَلْزَمْ سارية من السواري، فنحن أعلمُ بالحكم منك[4]!

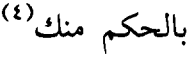

(١) المصدر السابق (١/٣٣٧).
(٢) صحيح الجامع الصغير (١٥٦٦).
(٣) سنن الترمذي، كتاب الأحكام (٣/٦٣٠) رقم (١٣٥٨).
(٤) أخبار القضاة (١/٣٣٨).

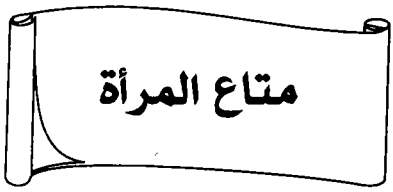

وقال كاتب إياس بن مُعاوية: كان إياس يقول في الرَّجل يُطَلِّق المرأةَ وقد أَحْدَثت في بيتها أشياء: ما كَانَ من مَتاع المَرأة، فهو لها، إلاّ أن يُقيم الرَّجلُ البَيِّنة أَنَّهُ له[1].

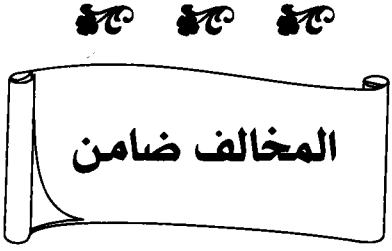

استعار رجلٌ قِدراً علىٰ أن يطبخ فيها تَمْراً، فطبَخ فيها سُكَّراً، فاحترقت القِدْرُ. قال إياس: هو ضامِنٌ إذا خالَفَ، هو ضامن إذا خالف، مَرَّتين[2]!

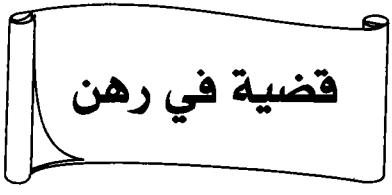

وقال حَمَّاد بن سَلَمَة: شهدتُ إياس بن معاوية يقول في

(١) تهذيب الكمال (٤٢٣/٣)، أخبار القضاة (٣٣٦/١).
(٢) تهذيب الكمال (٤٢٣/٣)، أخبار القضاة (٣٣٨/١).

رجل ارتَهَنَ رَهْناً، فقال المُرْتَهن: رهنته بعشرة، وقال الرَّاهنُ: رهنته بخمسة، قال: إن كان للراهن بيّنة، أنّه دفع إليه الرَّهن، فالقول ما قال الرَّاهن، وإن لم يكن له بَيِّنة، يدفع الرهن إليه، والرَّهنُ بيدِ المُرْتَهن، والقول ما قال المُرْتَهن، لأنَّه لو شاءَ جَحَدَهُ الرَّهنَ.

وقال: مَن أقرَّ بشيءٍ وليس عليه بَيِّنة، فالقولُ ما قال[1].

قال ابن القيم رحمه الله: وهذا قولٌ ثالث في المسألة، وهو من أحسن الأقوال، فإن إقراره بالرهن ـ وهو في يده ولا بيِّنة للراهن ـ دليلٌ على صدقه وأنه محقٌّ، ولو كان مبطلاً لجحد الرهن رأساً. ومالكٌ وشيخنا [ابن تيمية] رحمهما الله يجعلان القول قول المرتهن ما لم يزد على قيمة الرهن، والشافعي وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله يجعلون القول قول الراهن مطلقاً[2].

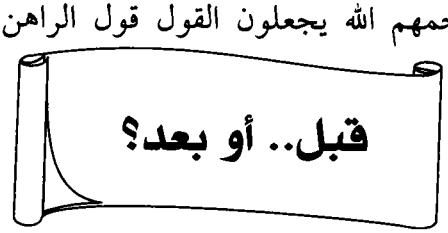

قال الحَارث بن مُرَّة الحَنفي: قال إياس بن معاوية: مررت بالكلأ؛ فرأيت رجلين يتنازعان؛ فقال أحدهما لصاحبه: أترضى بصاحب الحِمار؟ فقال أحدهم: اشتريت من هذا زوجاً من جذوع فلما انتقيت منها الذي رأيت تَغيرت الجُذوع عليَّ؛ فقلت

(١) المصدر السابق (٤٢٢/٣).

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص(٤٥).

لصاحبه: وهو كما قال؟ قال: نعم؛ قلت: فهو فيما لم ير بالخِيار؛ فقال لي بالفارسية: اذهب إلى عَمَلك.

ثمّ وليت القضاء بعد أيام، فكان هو وصاحبه أَوَّل من تقدم إليَّ فجعل صاحبه يَقُصَّ قصته، وجعل صاحبه يَتأمَّلني؛ فقال لصاحبه: أما إذا كان هذا فقد عرفت قضاءه، قم بنا!

قال إياس: فهو لم يرض بالقضاء إلا وهو عاقل[1].

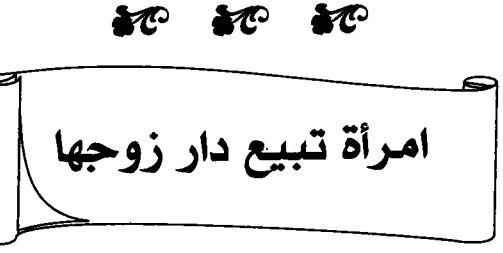

وباعت امرأة لزوجها داراً وهو غائب، فلما قدم من السفر أبى أن يُجيزَ البيعة. فخاصمتْهُ فيها إلى القاضي إياس، فجعل المشتري يقول: أصلحك الله، أنفقتُ فيها ألفي درهم! فقال: ألفاكَ عليَّ. فقضى للرجلِ بداره، وأمر بامرأته إلى السجن.

فلما رأى ذلك جوَّز البيع[2]!

واشتكى إليه شيخ فقال: أصلح الله القاضي، إن هذا ابني وليس يُنفق علي. فقال: ما صنعتك؟ قال: حائك.

فحكم عليه بخمسة دراهم[3].

---

(١) أخبار القضاة (١/٣٦٤ ـ ٣٦٥).
(٢) المصدر السابق (١/٣٣١).
(٣) المصدر السابق (١/٣٣٥).

الحلف كما يريده القاضي

واختصم إليه رجلان، استودعَ أحدهما صاحبه وديعةً، فقال صاحبُ الوديعة: استحلفْهُ بالله ما لي عنده وديعة.

فقال إياس: بل استحلفه بالله ما لكَ عنده وديعةٌ ولا غيرها[1].

قال ابن القيم رحمه الله:

وهذا من أحسن الفراسة، فإنه إذا قال: «ما له عندي وديعة» احتمل النفي، واحتمل الإقرار، فينصب «مالَهُ» بفعل محذوف مقدَّر، أي دفع مالَهُ إلي، أو أعطاني مالَهُ. أو يجعلُ «ما» موصولة والجار والمجرور صلته و «وديعة» خبر عن «ما». فإذا قال: «ولا غيرها» تعيَّنَ النفيُ[2].

عندما قضى على «ابن أمه»!

وأتى عديُّ بن أرطاة ـ وهو أمير البصرة، وكان أعرابيَّ

(١) تهذيب الكمال (٤٢١/٣)، أخبار القضاة (٣٣١/١، ٣٣٥؛ ٤٩/٣).
(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص(٤٤ ـ ٤٥).

الطبع - إلى إياس بن معاوية، وكان القاضيَ يومئذ في مجلس حكمه، فقال: يا هناه أين أنت؟

قال إياس: بينك وبين الحائط.

قال: فاسمع مني.

قال: للاستماع جلست.

قال: إني تزوجتُ امرأة.

قال: بالرفاء والبنين.

قال: وشرطتُ لأهلها ألاّ أُخرجها من بيتهم.

قال: أُوفِ لهم بالشرط.

قال: وأنا أريد الخروج.

قال: في حفظ الله.

قال: فاقضِ بيننا.

قال: قد فعلت.

قال: فعلى من قضيت؟

قال: على ابن أمك[1]!

قلت: ويروى مثل هذا الخبر عن شريح القاضي أيضاً[2].

---

(١) المستجاد من فعلات الأجواد ص(٢٥٩)، حدائق الأزاهر ص(٦٢).

(٢) انظر مثلاً: العقد الفريد (١/٦٥).

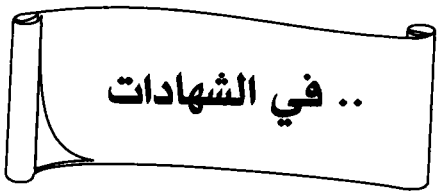

عن محمَّد بن عبدالرَّحمن القُرشي قال: قلت لإياس بن معاوية: أخْبرت أنك كنت لا تُجِيز شهادة الأشراف بالعراق، ولا التُّجار، ولا الذين يركبون البحر.

فقال: أجل! أما الذين يركبون البحر، فإنهم يركبون إلى الهند حتى يُغَرَّر بدينهم، ويُمكّنوا عَدُوَّهم منهم، من أجل طمع الدنيا، فعَرفت إن هؤلاء أن أُعْطِي أحدهم دِرهمين في شهادتهم لم يَتحرَّج بعد تغريره بدينه.

وأما الذين يتَّجرون في قرى فارس فإنَّ المجوس يُطْعمونهم الرِّبا، وهم يعلمون؛ فأبيْت أجيز شهادتهم لأجل الرِّبا.

وأما الأشراف فإن الشَّريف بالعِراق إذا نابت أحداً منهم نائبة أتى سيد قومه، شهد له وشفع، فقد كنت أرسلت عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر ألاّ يأتيني بشهادة[1]!

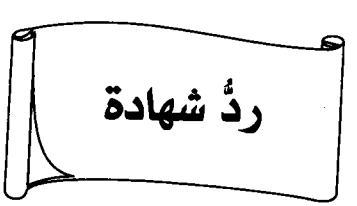

وما كان يحابي أحداً في قضائه.

---

(١) أخبار القضاة (٣٥٩/١).

فقد شهد رجل من جلساء الإمام الحسن البصري رحمه الله بشهادة عند إياس فردَّه، فشكا الرجل ذلك إلى الحسن، فأتاه الحسن فقال: يا أبا واثلة، لِمَ رددت شهادة فلان؟ فقال: يا أبا سعيد، إن الله يقول: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾[1]، وليس فلان ممن أرضى[2].

قال بعضهم: ولعل الإمام الحسن لا يرى أن تردَّ شهادة رجل مسلم إلا أن يجرِّحه المشهود عليه[3].

عندما رفض شهادة الفرزدق

ولم يُجز شهادة الشاعر الفرزدق!

فقد تقدَّم في قضيَّة ليشهد هو وآخر، فقال إياس القاضي: أما أبو فراس فقد عرفناه، ولكن زدنا شهوداً!

فقال الفرزدق: ما أحسنَ ما سَلَلْتَ عمَّكَ منها[4].

والقصة بأوضح منها في كتاب الأغاني، إن صدق مؤلفه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) نثر الدر (٥/١٤٠)، حدائق الأزاهر ص(٧٦)، العقد الفريد (١/٦٥؛ ٢/٢٩٢)، أخبار القضاة (١/٣٣٧).

(٣) هامش المصدر الأخير.

(٤) أخبار القضاة (١/٣٣٤).

فبعد ذكر قول إياس: زيدونا شهوداً، قام الفرزدق فرحاً؛ فقيل له: إنه والله ما أجاز شهادتك؛ قال: بلى؛ قد سمعته يقول: قد قبلنا شهادة أبي فراس، قالوا: أفما سمعته يستزيد شاهداً آخر؟ فقال: وما يمنعه ألا يقبل شهادتي وقد قذفت ألف محصنة[1]؟!

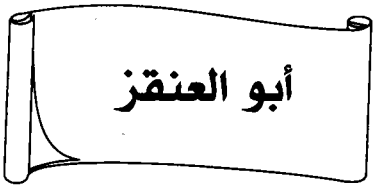

وشهد رجلٌ عند إياس، فقال له: ما اسمك؟

قال: أبو العَنْقَز[2].

فلم يقبل شهادته[3]!

ردَّها بسبب كنيته القبيحة.

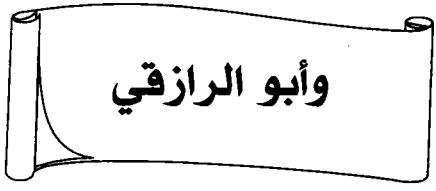

وخاصم إليه رجل فادّعىٰ دعوى، فقال له: أحضرني

(١) هامش المصدر السابق.

(٢) العنقز هو ذكر الحمار!

(٣) البداية والنهاية (١٢٥/١٣)، تاريخ دمشق (٣٠/١٠).

شهوداً. فنادى الرجل شاهداً: يا أبا الرازقي.

فقال إياس: ادعُ غيرَ هذا، وقل لهذا ينصرف[1]!

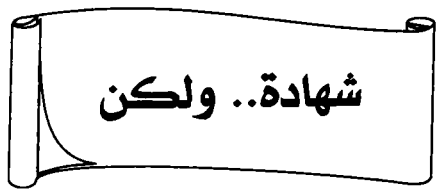

وعن عبدالله بن مُصعب السَّلِيْطيِّ: أن معاوية بن قُرة، شهد عند ابنه إياس بن معاوية، مع رجالٍ عَدَّلَهُم، علىٰ رجلٍ بأربعة آلاف درهم. فقال المَشْهُود عليه: يا أبا واثلة، تَثَبَّت في أمري، فوالله ما أشهدتهم إلا بألفين، فسأل إياس أَباه والشهودَ، أكانَ في الصَّحِيفة التي شهدوا عليها فَضْل[2]؟ قالوا: نعم. كان الكتاب في أَوَّلها، والطِّينة[3] في وَسَطها، وباقي الصحيفة أبيض. فقال: أَوَكان المشهودُ له يَلْقاكم أحياناً فيذكركم شهادتكم بأربعة آلاف؟ قالوا: نعم، كان لا يزال يلقانا فيقول: اذكروا شهادتكم علىٰ فلان بأربعة آلاف درهم.

فَصَرَفَهُم، ودعا المشهود له، فقال: يا عدو الله، تَغَفَّلْتَ قوماً صالحين مُغَفَّلين، فأشهدتَهُم على صَحِيفة جعلتَ طِيْنَتَها في وَسَطِها، وتركت فيها بياضاً في أسفلها، فلما ختموا الطِّيْنَة،

---

(١) الكامل للمبرد (٢/٥٥٩ ـ ٥٦٠)، نثر الدر (٧/٢٠٧).

(٢) أي زيادة.

(٣) الطينة: قطعة من الطين كان يختم بها الكتب والرسائل ونحوها قديماً.

قطعت الكتاب الذي فيه حقك ألفا درهم، وكتبت في البياض، وصارت الطينة في آخر الكتاب، ثم كنتَ تَلْقاهم فتلقِّنهم وتذكِّرهم أنها أربعة آلاف!

فأقرَّ بذلك، وسأله السِّتر عليه، فحكم له بألفين، وسَتَر عليه[1]!

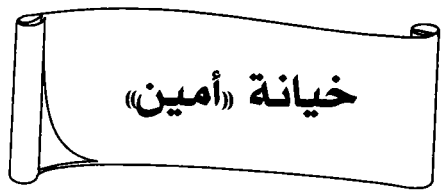

واستودع رجلٌ من أفناء الناس مالاً عند رجل آخر كان أميناً (في القضاء) عند إياس. وخرج المستودعُ ـ صاحب المال ـ إلى مكةَ، فلما رجع طلبه، فجحدَهُ، فأتىٰ إياساً، وأخبرَهُ، فقالَ له إياس: أعَلِم أنّك أتيتني؟ قال: لا. قال: فنازعته عند أحد؟ قال: لا، لم يعلم أحدٌ بهذا. قال: فانصرف واكتم أمرك، ثم عُد إليّ بعد يومين.

فمضىٰ الرَّجلُ، فدعا إياس أمينَهُ ذلك، فقال: قد حضر مالٌ كثيرٌ أريد أن أُصَيِّرَهُ إليك، أفحصينٌ منزلك؟ قال: نعم. قال: فأَعِدَّ موضعاً للمال وقوماً يحملونه.

---

(١) تهذيب الكمال (٤٢٥/٣)، أخبار القضاة (٣٦٩/١ ـ ٣٧٠)، الطرق الحكمية ص(٤٦).

وعادَ الرَّجل إلى إياس فقال له: انطلق إلى صاحبك، فاطلب مالك، فإن أعطاكَ فَذَاك، وإن جَحَدك، فقل له: إنّي أخبر القاضي. فأتىٰ الرَّجلُ صاحبَهُ فقال: مالي وإلا أَتيتُ القاضي فشكوت إليه وأخبرته بأمري. فدفع إليه مالَهُ.

فرجع الرَّجل إلى إياس، فقال: قد أعطاني المال.

وجاء الأمين إلى إياس لموعِده، فَزَبَرَهُ وانتهرَهُ، وقال: لا تقربني يا خائِن[1].

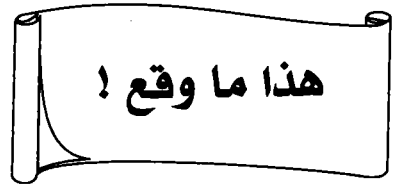

وعن مسلمة بن مُحارب قال: تقدَّم إلىٰ إياس رجلٌ من عَنَزَة أُعَيْمش، تخاصِمه امرأة كالقلعة، ومعها نفر فيهم فتىً شاب له منظر وَرُواء، فأقبلت المرأة تَكَلَّم بلسان سَلِيط، فقال لها إياس: أجملي في منازعة بَعلِكِ. فقالت: لو كان لذلك أهلاً فعلتُ، ولكنّه هِلباجةٌ[2] نؤوم، لكلّ معروف عدوم، فقال بَعْلُها: أما إذْ أَبَتْ، فوالله لا أكتم خبرها، ثم أنشده:

---

(١) نثر الدر (١٥٣/٥)، الطرق الحكمية ص(٣٨)، الأذكياء ص(٨٠)، وفيات الأعيان (٤٦٦/١)، تهذيب الكمال (٤٢٦/٣)، البداية والنهاية (١٢٤/١٣)، أخبار القضاة (٣٧١/١)، تاريخ دمشق (٢٩/١٠).

(٢) أي أحمق.

نَبَتْ عَينُها عنِّي وَرَاقَ فُؤَادُهَا ... فتىً من بني جِلاَّنَ رخوِ المكاشرِ
فتىً لو أُجَارِيه إلى المَجْد فُتُّهُ ... وقَصَّرَ عن إدْراكِ حُرِّ المآثِر
رأَتْه جميلاً ذا رُواء فأَذْعنت ... إلَيْهِ ورامتني بإحدىٰ القناطر[1]
ودُونَ الذي رامتْ مِن الموتِ عارضٌ ... علىٰ رأسها جَمٌّ كثير الزَّماجر

فرفع إياس رأسه، فنظر في وجوه القوم، فقال لفتىً: ما اسمك؟ قال: رَوق بن عمرو، فقال: أجِلاّنيٌّ أنت؟ قال: نعم. قال: أدنُهْ، فدنا منه، فأخذ بأذنه وقال: والله لئن بلغني أنَّك دخلت بينهما لأُطيلنَّ حَبْسك. فقال البَعْلُ: أما إذْ أظهرتُ ما كنت أخفي، فهي طالق ثلاثاً، فقال له إياس: إنّك لكريم، ثم قال للمرأة: انهضي فغير فقيدة ولا حَميدة، قَبَّحكِ الله، وما تاقت إليه نفسُكِ[2].

عقوبة غلام مملوك

وقال مَطَر بن حمران: شهدت إياساً، وجيء بغلام قد سرقَ أَكْسِيةَ الحَمَّالين، فقامت عليه البَيِّنَة، فقال: اكشفوا عنه.

---

(١) القِنطر: الداهية.

(٢) تهذيب الكمال (٤٣٢/٣)، أخبار القضاة (٣٥٧/١ ـ ٣٥٨).

فكشفوا فلم يكن احتلم، فقال: لو كان احتلم لقطعته. اذهبوا به حيث سَرَقَ، فسوِّدوا وَجْهَهُ وعَلِّقوا في عنقِهِ العِظامَ، واضربوه حتى يدمىٰ ظهره، وطوفوا به.

فجاء رجل يسعىٰ فقال: أَصْلَحك الله إنّه مملوك لي، فإنْ فعلتَ ذلك به كسرتَ ثمنَهُ.

فقال إياس: يَعْمِدُ أحدكم إلى الغُلام لم يَحْتَلِم فيكلّفه الضريبة ولا يحسن عملاً يَعْمله، فإنّما يأمره أن يَسْرق ويُطعمه، ويَعْمِدُ أحدُكم إلى الجارية، فيقول لها اذهبي فأدّي الضريبة، وإنما يقول لها اذهبي فازني وأطعميني[1].

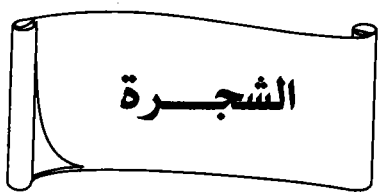

وقال أبو الحسن المَدَائنيُّ: تنازعَ إلى إياس رجلان، ادّعىٰ أحدهما أنه أودَع صاحبَهُ مالاً، وجحدَهُ الآخر، فقال إياس للمُدعي: أين أودعته هذا المال؟ قال: في موضع كذا وكذا، قال: وما كان في ذلك الموضع؟ قال: شَجَرة. قال: فانطلقْ فالتمسْ مالك عند الشجرة، فلعلك إذا رأيتها تذكر أين وضعتَ مالك.

فانطلق الرجل، وقال إياس للمطلوب: اجلس إلى أن يجيء صاحبك.

---

(١) تهذيب الكمال (٤٢١/٣)، أخبار القضاة (٣٢٩/١).

فجلس، فلبث إياس مليّاً يحكم بين الناس، ثم قال للجالس عنده: أترىٰ صاحبك بلغ الموضع الذي أودعك فيه؟ قال: لا.

قال: يا عدو الله إنك لخائن.

فأقرّ عنده فحبسَهُ، حتىٰ جاءَ صاحبه، ثم أمره بدفع الوديعة إليه[1].

كيس الدراهم

وأودعَ رجلٌ رجلاً كيساً فيه دنانير، فغابَ خمسَ عشرةَ سنة، ثم رجعَ، وقد فَتَقَ المُودَعُ الكيسَ من أسفَلِه، فأخذَ ما فيه وجعل مكانه دَرَاهم. والخاتم على حاله، فنازعه، فقال إياس: مُذْ كم أودعته؟ قال: من خمس عشرة سنة، فسأل المودَعَ. فقال: صدق، فأخرج الدَّراهم، فوجد فيها ما ضُرِبَ مذ عشر سنين، وخمس سنين، فقال للمودَع: أقررتَ أنه أودعكَ مذ خمس عشرة سنة، وهذا ضَرْبٌ أحدث مما ذكرت. فأقرّ له بوديعته، وردّها عليه[2]!

---

(١) وفيات الأعيان (٤٦٧/١)، تهذيب الكمال (٤٢٤/٣)، نثر الدر (١٠٨/٤)، الأذكياء ص(٨٢)، الطرق الحكمية ص(٣٩)، البداية والنهاية (١٢٤/١٣)، تاريخ دمشق (٢٨/١٠)، أخبار القضاة (٣٤٢/١).

(٢) تاريخ دمشق (٢٩/١٠)، تهذيب الكمال (٤٢٥/٣)، أخبار القضاة (٣٤٢/١)، الطرق الحكمية ص(٣٩).

أحمر.. وأخضر!

جاءَ رجُلان إلى إياس بن مُعاوية، يختصمان في قَطِيفتين[1]، إحداهما حَمْراء، والأخرىٰ خَضْراء، فقال أحدُهُما: دخلتُ الحَوْض لأغتسلَ، ووضعتُ قَطِيفتي، وجاءَ هذا فوضعَ قطيفته تحت قطيفتي، ثم دخلَ فاغتسل، فخرجَ قبلي، فأخذ قطيفتي فمضى بها. ثم خرجت فتبعته، فزعم أنها قطيفته. فقال: ألك بَيِّنة؟ قال: لا. قال: ائتوني بمشط، فأُتي بمُشْطٍ، فَسَرَّحَ رأس هذا، ورأس هذا، فخرج من رأس أحدهما صوف أَحمر، ومن رأسِ الآخر صُوف أخضر، فقضىٰ بالحَمْراء للذي خرجَ من رأسه الصُّوف الأحمر، وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصُّوف الأخضر[2].

خِزٌّ وأنبجاني

واختصم إليه رجلان في مُطرف خزٍّ، وأنبجانيٍّ[3]، فادَّعى

---

(١) القطيفة كساء ذو أهداب.

(٢) الطرق الحكمية ص(٤٥)، تهذيب الكمال (٤٢٣/٣)، الوافي بالوفيات (٤٦٧/٩)، أخبار القضاة (٣٣٨/١).

(٣) المطرف: الثوب. والأنبجاني: ثوب من الكتان ونحوه، وليس بغالي الثمن.

كلُّ واحد منهما المطرف الخزَّ أنه له، وأنَّ الأَنبجاني للآخرِ. فدعا إياس بمشط وماءٍ، فبلَّ رأسَ كلِّ واحد منهما. ثم قال لأَحدهما: سرِّح رأسك. فخرج في المُشط غفرُ المطرف[1] وفي مشط الآخر غفر الأنبجاني، فقال: الأنبجاني لك.

وأمر بدفع المطرفِ إلى صاحبه[2].

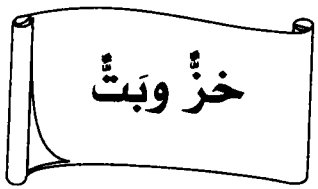

خزٌّ وبَتٌّ

دخل رَجُلان الحَمَّام؛ أحدهما عليه مِطرف خز، والآخر عليه بَتٌّ[3]، فخرج صاحب البتِّ، فلبس المِطرف، فتعلق به صاحبه، فسارا إلى إياس فقال إياس لصاحب البَت: أذنه، فدنا فنظر إلى شَعْر رأسه فإذا هُو قائم، ونظر إلى شَعْر الآخر فإذا هو ساكن؛ فقال لصاحب البَت: ادفع المطرف إليه، وخذ البَتَّ[4].

---

(١) غفرُ المطرف: غباره.

(٢) نثر الدر (٥/١٥٢ ـ ١٥٣).

(٣) البتُّ: كساء غليظ من صوف أو وبر.

(٤) أخبار القضاة (١/٣٦٣).

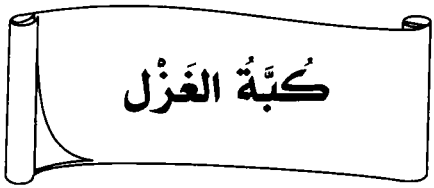

وعن عَرعرة بن البِرِنْد، عن شَيخ له سماه قال: كنتُ عند إياس بن معاوية إذ أتته امرأتان تَخْتصمان في كُبَّة غزل، ليس معهما بيِّنَة، فبَعَّد واحدة، وَقرَّب الأخرى، فقال لها: على أيِّ شيءٍ كَبَبت غَزْلك؟ قالت: على كِسرة خُبز؛ فنَحّاها، وقَرَّب الأخرى فقال: على أيِّ شيء كَبَبت غزلك؟ قالت: على خِرقة، فأمر بالكُبّة فنُفِضت فإذا هي على كِسرة خُبز.

قال: فأتيت محمَّد بن سيرين فأخبرته، فقال: ويحاً له ما أفهمه، ويْحاً له ما أفهمه[1]!

وعن زيد أبي العَلاء قال: شهدتُ إياس بن مُعاوية، اختصم إليه رَجُلان، فقال أحدُهما: إنَّهُ باعني جاريةً رَعْنَاءَ، فقال إياس: وما هذا؟ وما عسى أن تكون الرُّعونة؟ قال: إنه يشبه الجنون، قال إياس: يا جارية أتذكرين متىٰ وُلدْتِ؟ قالت:

(١) أخبار القضاة (٣٣٢/١)، التذكرة الحمدونية (١٥١/٨).

نعم. قال: فأيّ رجليك أطول؟ قالت: هذه، فقال إياس ردّها فإنها مجنونة[1].

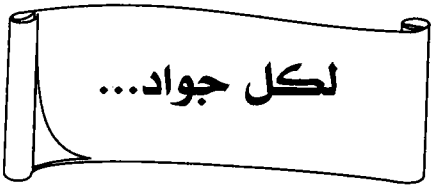

وقال مرة: ما غلبني أحدٌ قطُّ سوى رجلٍ واحد!

وذلك أني كنتُ في مجلسِ القضاء بالبصرة، فدخل عليَّ رجلٌ شهدَ عندي أن البستان الفلاني ـ وذكر حدوده ـ هو مُلْكُ فلان. فقلت له: كم عدد شجره؟ فسكت ثم قال: منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت له: الحقُّ معك. وأجزتُ شهادته[2].

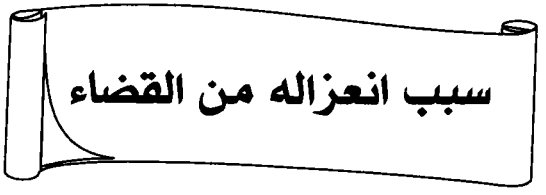

ولم يدم إياس في القضاء أكثر من سنة، ثم فرَّ من البصرة

---

(١) عيون الأخبار (٧٤/١)، تهذيب الكمال (٤٢٤/٣)، الطرق الحكمية ص(٤٦)، البداية والنهاية (١٢٥/١٣)، تاريخ دمشق (٢٩/١٠)، أخبار القضاة (٣٢٨/١)، المجالسة رقم (٦٢١).

(٢) وفيات الأعيان (٢٤٩/١)، الوافي بالوفيات (٤٦٦/٩)، البداية والنهاية (١٢٧/١٣).

خوفاً من واليها عدي بن أرطاة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز في الشام.

واختلف في سبب ذلك!

منها رواية تقول إن أحد المقرَّبين إلى عدي، هو وكيع بن حسان بن أبي أسود البصري، وكان أحد الفرسان والشعراء، وكان يُحمَّق، أتى إياساً ليشهد في قضية، فخاف إن ردَّ شهادته، ورأى في الحقِّ أن لا يجيزها، فقال له إياس: ما لكَ وللشهادة، إنما يشهدُ الموالي! إليَّ هاهنا!

فقال له وكيع: صدقت والله. فارتفع، ثم أقبل على الذي أحضرَهُ فسبَّه. فلمّا قام أقبل عليه الذي أحضره فقال: والله إن إياساً ردَّك لعدم قبول شهادتك عنده، ولقد شهد أشراف الناس في قديم الدَّهر وحديثه!

فقال وكيع: صدقت والله. والله لأضربنَّه ضربةً بسيفي أخذتْ منه ما أخذت. وكان حاقداً عليه[1].

ورواية أخرى تذكر أن أحد المتصلين بأمير البصرة عدي طلَّق زوجته وهو سكران، فاشتكتْ إلى إياس، وجاءت بشاهد، لكن زوجها جحدَ ذلك، فانتزعها منه إياس، وتدخَّل عديٌّ فردَّها.. فخاف على نفسه، فخرج إلى عمر بن عبدالعزيز.

---

(١) انظر خبر هذا الشاعر الشاهد في: العقد الفريد (٦٥/١)، أخبار القضاة (٣٤٣/١)، الكامل للمبرد (٥٥٩/٢)، نثر الدر (١١٥/٤، ٤٣)، التذكرة الحمدونية (٢٦٠/٨)، حدائق الأزاهر ص(٧٦)، تاريخ الإسلام ص(٤٥)، والمصدرين التاليين في آخر هذا الخبر.

ورواية أخرى، أو أنها حادثة أخرى قريبة أوردها المدائنيّ، فذكر أن المُهَلَّب بن القاسم بن عبدالرحمن الهِلاليَّ كان من أجمل الناس، فشرب يوماً وامرأته عنده، فناولها قدحاً، وأمرها بشربه، فأبت عليه، فقال: إن لم تشربيه فأنت طالق ثلاثاً. فقالت: ضعه من يدك، فوضعه، وفي الدار ظبيٌ يجول في الدار، فمرّ بالقدح فكسره، ولم يحضر ذلك إلاّ نسوة، فجحدَ المُهَلَّب طلاقَها، فأرسلت إلى أهلِها، فاحتملوها، فأتىٰ القاسم بن عبدالرحمن عَدِيَّ بن أرطاة، فقال: إن أهل زوجة ابني غلبوه عليها. فتغَضَّبَ له عَدِيّ فانتزعها وردَّها على المهلّب، فخاصمته المرأة إلى إياس، وجاءت بالنسوة فشهدنَ لها، وفَتَّش إياس عن الأمر، فوجده حقاً، فقال للمهلب: لئن قربتها لأرجُمنَّك.

فغضب عديّ على إياس، فقال له عُمر بن يزيد بن عُمر الأُسَيْديُّ ـ وكان عدوّاً لإياس، لأنّه كان حكم على ابنه بأَرْحَاءَ كانت في يده فأخرجَهَا من يده ـ: انْظُرْ قوماً يشهدون على إياس أنه قَذَفَ المُهَلَّب بن القاسم ثم احدده واعزله، فقال: ائتني بمن يَشْهَد. فأتاه بيزيد الرشك، وابن رياطٍ ليلاً، فأجمع عديّ علىٰ أن يُرسِلَ إذا أصْبَحَ إلىٰ إياس فيشهدان عليه، والقاسم بن ربيعة الجَوْشَنيّ حاضرٌ، فقال عُمر بن يزيد لعَدِيّ: إنّ هذا سيأتي إياساً، فيحذِّره، فاستحلف عَدِيُّ القاسمَ بنَ ربيعةَ أن لا يخبر إياساً بشيء، فحلف ثم خرج، فمرّ بدار إياس، فدقَّ بابَهُ، فقيل: من هذا؟ فقال: القاسم بن ربيعة، كنت عند الأمير، فأحببتُ أن لا آتي أهلي حتىٰ أمرَّ ببابك فأُعْلِمَكَ، ثم مضىٰ.

فقال إياس: ما جاءني الساعة إلاّ لأمر خافه عليّ، فتوارىٰ، ثم خرج إلى واسط.

فكتبَ عديٌّ إلى عمر بن عبدالعزيز: إنّ إياساً هربَ إليك من أمر لَزمه، وإنّي وَلّيتُ الحسن بن أبي الحسن القضاءَ. فكتب إليه عمر: الحَسَنُ أهلٌ لما ولّيته، ولكن ما أنت والقضاء؟ فرّقْ بينهما، فَرّقَ الله بين أعضائك!

قال أبو الحسن المدائني في حديثِهِ: لما هَرَب إياس، غَمَّ ذلك عديّاً، وخاف عُمَرَ، فقال له يوسف بن عبدالله بن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيُّ: إن أردت أن لا يَجِد عليك عُمر، فأكرِه الحسن البصري علىٰ القَضاء، فإنَّ عُمر لا يغيِّر ما صَنَعْتَ. ففعلَ. وكتبَ إلى عمر: إنّ إياساً هربَ إليك من حقٍّ لزمه، وقد ولّيتُ الحسن القضاء، فكتب إليه عمر: إن في الحسَن لخَلَفاً.

قال ابن شوذب: وَلِيَ الحسن البصري قضاء البصرة في خلافة عمر بن عبدالعزيز بعد إياس بن معاوية، فما قام له، ولا قوي عليه، وكان الناسُ إذا تداكُّوا عليه قال: إن الناس لا يصلحهم إلا وَزَعَةٌ. يعني الشُّرَط[1].

---

(١) تهذيب الكمال (٣/٤٣٧ ـ ٤٤٠)، أخبار القضاة (١/٣١٣ ـ ٣١٦).
قلت: ثم وقفت على عنوان رسالة جامعية (دكتوراه) قُدِّمت إلى المعهد العالي للقضاء التابع لجامعة الإمام بالرياض، وهي بعنوان «القاضي إياس بن معاوية والقضاء بالفراسة» إعداد محمد بن علي بن سنان، ١٤٠٩هـ. والفائدة منها محققة لأصحاب الشأن.

فهرس المراجع

- **آداب الملوك** /عبدالملك بن محمد الثعالبي؛ تحقيق جليل العطية.ـ بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٠هـ.
- **إحياء علوم الدين** /محمد بن محمد الغزالي.ـ ط محققة.ـ بيروت: دار الهادي، ١٤١٢هـ.
- **أخبار القضاة** /محمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع.ـ بيروت: عالم الكتب، د.ت.
- **الأذكياء** /عبدالرحمن بن علي بن الجوزي؛ قام بضبطه وتصحيحه محمد محمود.ـ الرياض: المكتبة الأهلية، د.ت.
- **أسرار الحكماء** /ياقوت بن عبدالله المستعصمي؛ تحقيق سميح صالح.ـ دمشق: دار البشائر، ١٤١٤هـ.
- **الأمثال والحكم** /علي بن محمد بن حبيب الماوردي؛ تحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد.ـ الرياض: دار الوطن، ١٤٢٠هـ.
- **البخلاء** /عمرو بن بحر الجاحظ؛ شرحه وعلق عليه محمد ألتونجي.ـ بيروت: دار الجيل، ١٤١٤هـ.
- **البداية والنهاية** /ابن كثير الدمشقي؛ تحقيق عبدالله التركي.ـ القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ١٧ ـ ١٤٢٠هـ.
- **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس** /يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي؛ تحقيق محمد مرسي الخولي.ـ ط٢ ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ.

- **البيان والتبيين** /عمرو بن بحر الجاحظ؛ تحقيق عبدالسلام محمد هارون.- ط٥ - القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ.
- **تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات ١٢١ - ١٤٠هـ** /للذهبي؛ تحقيق عمر عبدالسلام.- بيروت: دار الكتاب العربي.
- **تاريخ خليفة بن خياط** /تحقيق أكرم ضياء العمري.- ط٢ مزيدة ومنقحة.- الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ.
- **تاريخ مدينة دمشق** /أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر؛ تحقيق عمر بن غرامة العمروي.- بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ...
- **التذكرة الحمدونية** /ابن حمدون الصقلي؛ تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار صادر.
- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال** /أبو الحجاج يوسف المزي؛ تحقيق بشار عواد معروف.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ.
- **حدائق الأزاهر** /ابن عاصم الأندلسي؛ تحقيق عفيف عبدالرحمن.- بيروت: دار المسيرة، ١٤٠٧هـ.
- **حلية الأولياء** /أبو نعيم الأصبهاني.- بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- **الحيوان** /عمرو بن بحر الجاحظ؛ تحقيق عبدالسلام محمد هارون.- ط٢ - القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ٨٤ - ١٣٨٩هـ.
- **خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق** /محمود بن أحمد الفاريابي؛ تحقيق محمد خير يوسف.- بيروت: دار ابن حزم.
- **الرقة والبكاء** /ابن أبي الدنيا؛ تحقيق محمد خير يوسف.- ط٣ - بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** /ابن العماد الحنبلي؛ تحقيق محمود الأرناؤوط.- دمشق: دار ابن كثير.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** /أحمد بن علي القلقشندي؛ تحقيق محمد حسين شمس الدين.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ.

- **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** /محمد ناصر الدين الألباني.- ط٣ - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٠هـ.
- **صفة الصفوة** /عبدالرحمن بن علي بن الجوزي؛ تحقيق محمود فاخوري؛ خرج أحاديثه محمد رواس قعله جي.- ط٣ - حلب: دار الوعي، ١٤٠٥هـ.
- **الطبقات الكبرى** /محمد بن سعد.- بيروت: دار صادر: دار الفكر، د.ت.
- **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية** /ابن قيم الجوزية؛ أشرف على التحقيق حازم القاضي.- مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ.
- **العقد الفريد** /ابن عبد ربه الأندلسي؛ تحقيق محمد سعيد العريان.- بيروت: دار الفكر، د.ت.
- **عيون الأخبار** /عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.- ط٣ - القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٤١٦هـ (مصورة من ط١٣٤٣هـ).
- **قضاة العرب** /حسن مغنية.- بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ.
- **الكامل** /أبو العباس محمد بن يزيد المبرد؛ تحقيق محمد أحمد الدالي.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ.
- **المجالسة وجواهر العلم** /أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري؛ تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان.- أم الحصم، البحرين: جمعية التربية الإسلامية؛ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** /نور الدين الهيثمي؛ بتحرير العراقي وابن حجر.- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ.
- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** /الراغب الأصبهاني.- بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت.
- **مساوىء الأخلاق ومذمومها** /محمد بن جعفر الخرائطي؛ تحقيق مجدي السيد إبراهيم.- القاهرة: مكتبة القرآن، ١٤٠٩هـ.

- **المستجاد من فعلات الأجواد** /المحسن بن علي التنوخي؛ تحقيق محمد كرد علي.- بيروت: دار صادر، ١٤١٢هـ.
- **معجم الأمثال العربية** /خير الدين شمسي باشا.- الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٧هـ.
- **المعجم الكبير** /الطبراني؛ تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي.- القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ت.
- **مكارم الأخلاق** /ابن أبي الدنيا؛ تحقيق مجدي السيد إبراهيم.- القاهرة: مكتبة القرآن، ١٤١٠هـ.
- **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** /عبدالرحمن بن علي بن الجوزي؛ تحقيق محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ.
- **المنتقى من مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها للخرائطي** /انتقاء أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني؛ تحقيق محمد مطيع حافظ، غزوة بدير.- دمشق: دار الفكر، ١٤٠٨هـ.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** /الذهبي؛ دراسة وتحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد عبدالموجود، عبدالفتاح أبو سنة.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.
- **نثر الدر** /أبو سعد منصور بن الحسين الآبي؛ تحقيق عدة باحثين.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- **الوافي بالوفيات** /خليل بن أيبك الصفدي؛ تحقيق عدة باحثين.- فيسبادن: دار النشر فرانز شتاينر.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** /أحمد بن محمد بن خلكان؛ تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار الثقافة، ٨٨ - ١٣٩٨هـ.

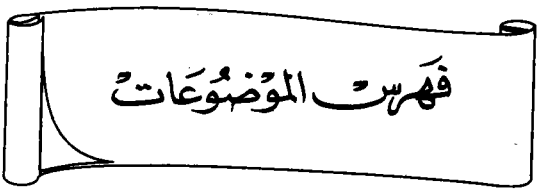

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة	٥
الفصل الأول	
طرف من سيرة إياس	
تحيَّة العلماء	١١
يذكر يوم ولادته!	١٤
والـده	١٦
والـدتـه	١٧
إياس.. الطفل الذكي	١٩
حوار أطفال	٢٠
غلامٌ مقدَّم	٢٠
كـريـم	٢١
هروب من المسؤولية.. ولكن	٢٢
ابتـلاء	٢٤
توقُّع وفاته.. فمات كما توقع!	٢٥

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

أحداث وتجارب

بحر في العلم ٢٩
وعالم بالتفسير ٢٩
الحياء.. في حديث ٣٠
بين أجرة البنّاء.. وأجرة العامل ٣١
مشاورة في خصومة ٣٢
درسٌ لا يُنسى! ٣٢
تعليل أم تأويل؟ ٣٣
الثناء من الجزاء ٣٤
بين الراعي والرعية ٣٤
خاص بالسياسة! ٣٥
كيف عرفت؟ ٣٥
عقل رزين ٣٦
أعلمُ ما تسأل! ٣٦
الولدُ أبرُّ؟ ٣٧
ما تعجبون من الدنيا؟ ٣٧
مكثار.. مصيب ٣٨
ومعجبٌ بكلامه! ٣٩
تُهمٌ بالجملة! ٤٠
تعقيب ٤١
شبهات.. وردود ٤٢
سريع المشية ٤٣

الموضوع	الصفحة

النفقةُ تجلب الرزق ٤٣
شكوى من النفقة ٤٤
اقتصاد ٤٤
مالٌ.. يأكل المال! ٤٥
أغنى ٤٥
وينصح التجار ٤٦
محاورة مع مجرِّب ٤٧
إهانة شريف ٤٧
محاجَّة القدرية ٤٨

الفصل الثالث

آراء وأقوال

المروءة.. واللباس! ٥٥
الورع.. الورع ٥٥
أكرم خُلق.. وأشنعه ٥٦
وصايا ٥٧
ويضرب مثلاً ٥٨
آراء علمية ٥٨
جملة أقوال ٦٠

الفصل الرابع

ذكاء.. وفراسة

نبوغ مبكّر ٦٥

الموضوع	الصفحة
حجّته حاضرة	٦٦
عقلان.. ليسا كالعقول!	٦٧
مثال مسكت.. وجواب مقنع	٦٧
إلى متى..؟	٦٩
لطيفة.. مع أنس	٦٩
لست بالخبّ	٧٠
خلّص نفسه بذكائه	٧٠
اختصار!	٧١
معلّم صبيان	٧٢
حُمرةُ واسط	٧٣
قدرة..!	٧٤
يبحث عن الحَمام	٧٤
جماع الفراسة!	٧٥
حَيْرةٌ في مكانها!	٧٦
فراسة.. مضاعفة!	٧٦
لونان من الطعام	٧٧
حلاوة رجل !	٧٨
طبق جراد !	٧٩
ماءٌ مقطّر	٧٩
حامل ومرضع وبكر	٨٠
مرضع وبكر وثيِّب	٨٠
ثكلى وحبلى وحائض	٨٢
حامل بغلام!	٨٣

الموضوع	الصفحة

استنتاج عجيب! ٨٣
هذا أو هذا! ٨٤
بائع رمان ٨٥
خياط قلانس ٨٥
صاحب لحية ٨٦
هذا لصٌّ! ٨٦
مسرح التحقيق ٨٧
صاحبكم حيٌّ! ٨٧
بعير أعور ٨٨
أوضاع للكلب ٨٨
ديك هرم ! ٨٩
ذباب.. وحيَّة! ٩٠
تحت الأرض! ٩٠
قيافة.. حلَّت عقدة ٩٢
إنه ابنك! ٩٣
قياس خاص ٩٤

الفصل الخامس

في مجلس القضاء

فطنته أوقعته في القضاء! ٩٧
خوف.. وبكاء ٩٩
في السوق.. وفي الطريق ١٠٠
لم تعجِّل بالقضاء؟ ١٠٠

الموضوع	الصفحة
ميزة القاضي إياس	١٠١
مقدّمات في القضاء	١٠١
القضـاء	١٠٢
الشـورى	١٠٣
الخطـأ	١٠٤
امرأته طالقٌ إنْ	١٠٥
جاريته لأبيه!	١٠٥
متاع المرأة	١٠٧
المخالف ضامن	١٠٧
قضية في رهن	١٠٧
قبل.. أو بعد؟	١٠٨
امرأة تبيع دار زوجها	١٠٩
الحلف كما يريده القاضي	١١٠
عندما قضى على «ابن أمه»!	١١٠
.. في الشهادات	١١٢
ردُّ شهادة	١١٢
عندما رفض شهادة الفرزدق	١١٣
أبو العنقز	١١٤
وأبو الرازقي	١١٤
شهادة.. ولكن	١١٥
خيانة «أمين»	١١٦
هذا ما وقع!	١١٧
عقوبة غلام مملوك	١١٨

الموضوع	الصفحة

الشجـرة ١١٩
كيس الدراهم ١٢٠
أحمر.. وأخضر! ١٢١
خِزٌّ وأنبجاني ١٢١
خزٌّ وبَتٌّ ١٢٢
كُبَّةُ الغَزْل ١٢٣
المجنونة! ١٢٣
لكل جواد... ..... ١٢٤
سبب انعزاله من القضاء ١٢٤
فهرس المراجع ١٢٩
فهرس الموضوعات ١٣٣